

تفسير سورة النحل

مِنْ مَعْرِفَةِ النِّعْمَةِ إِلَى تَوْحِيدِ الْمُنْعَمِ،
مِنْ الْإِيمَانِ إِلَى بِنَاءِ الْحَيَاةِ



أ. مصطفى محسن حسان

تفسير سورة النحل

من معرفة النعمة إلى توحيد المنعم

ومن الإيمان إلى عمارة الحياة.

❖ فهرس مقاطع سورة النحل الموضوعية

م	الموضوع الغالب	الآيات	المقطع
١	تقرير الألوهية والوحي والبعث	٩-١	الافتتاح العقدي
٢	الاستدلال بالنعم وقد الشرك	٢١-١٠	النعم الكونية
٣	تفنيد الشبهات وسنة الله في المكذبين	٥٦-٢٢	مواجهة الشرك
٤	التأمل في دقائق التكوين	٦٩-٥٧	نعم الأنعام والنحل
٥	ربط النعمة بالمعرفة والإنكار	٨٣-٧٠	النعم الاجتماعية
٦	ربط النعم بالمسؤولية الأخروية	٨٩-٨٤	البعث والجزاء
٧	تحويل العقيدة إلى عمل	١٠٠-٩٠	التوجيهات الأخلاقية
٨	تأكيد الوحي والإعراض	١١١-١٠١	شبهات حول القرآن
٩	الجحود الجماعي والاقتداء	١١٩-١١٢	القرية وإبراهيم
١٠	التوحيد والدعوة والصبر	١٢٨-١٢٠	الخاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأنعم على عباده بالنعم الظاهرة والباطنة، وأقام في الآفاق والأنفس دلائل ربوبيته ووحدانيته، وأنزل الكتاب هدايةً للناس، وحيّةً على الخلق، ومنهجًا تستقيم به الحياة. والصلاة والسلام على نبينا محمد، المبعوث رحمةً للعالمين، والناعي إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه إلى يوم الدين.

تأتي سورة النحل لتوقظ في الإنسان حقيقةً قد تغيب عنه وسط اعتياده الحياة وتتابع أحوالها: أن هذا الوجود ليس متروكًا للمصادفة، وأن هذه النعم ليست وليدة استقلال الإنسان، وأن وراء كل آية من آيات الكون قدرة الخالق وحكمته، ووراء كل نعمة حقًا لله يستوجب الاعتراف والشكر والعبودية. إنها سورة تنقل القلب من الألفة التي تحجب المعنى إلى التأمل الذي يكشف الآية، ومن مشاهدة النعمة إلى معرفة المنعم، ومن الإقرار بوجود الخالق إلى إخلاص العبادة له، ومن الإيمان الذي يستقر في القلب إلى العمل الذي يشهد له في واقع الحياة.

وتفتتح السورة بقول الله تعالى: ﴿هَآؤُنْ أَتَىٰ اللَّهُ الْإِنسَانَ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١]، فتضع الإنسان منذ اللحظة الأولى أمام سلطان الله المطلق، وحمية أمره، وتنزهه سبحانه عن كل ما يفتره المشركون عليه. فالوجود الذي يراه الإنسان مستقرًا لا يخرج عن تدبير الله، والساعة التي يستبدها المكذبون آتية بوعده، والوحي الذي يجبر بحقائق الغيب ليس قولًا بشريًا، بل هداية أنزلها الله على من اصطفى من عباده. ومن هنا تؤسس السورة رؤيتها الكبرى: الله هو الخالق الرازق المدبر، المستحق وحده للعبادة، والإنسان عبد مسؤول، لا يملك أن ينفصل عن ربه أو يتصرف في حياته كأنه مستقل عن أمره وهدايته.

ثم تفتح السورة أبواب التأمل في هذا الكون الواسع؛ فالماء الذي ينزل من السماء، والنبات الذي يخرج من الأرض، وتعاقب الليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم، والبحر بما يحمل من أرزاق ومنافع، والجبال والسبل، والأنعام وما فيها من منافع، والنحل وما يخرج من بطونها من شراب مختلف ألوانه، كلها آيات قائمة تدعو العقل إلى النظر، والقلب إلى الإيمان، والإنسان إلى الشكر. وليست الغاية من هذا العرض مجرد تعداد مظاهر الطبيعة، وإنما تحرير العقل من الغفلة، وردّ النعم إلى مصدرها الحق، وإقامة الحجة على أن من انفرّد بالخلق والرزق والتدبير هو وحده المستحق للعبادة.

وفي هذا تتجلى روعة النظم القرآني؛ إذ تتجاوز دلائل الكون مع قضايا العقيدة، وتنتقل الآيات من مشاهد الخلق إلى مسؤولية الإنسان، ومن النعمة المحسوسة إلى الحقيقة الغيبية، ومن إقامة الحجة إلى كشف موقف المكذبين منها. فالماء ليس مجرد عنصر تستمر به الحياة، والأنعام ليست مجرد مصدر للغذاء واللباس، والنحل ليس مجرد مخلوق ينتج العسل؛ بل كل ذلك آيات لمن يتفكر، ودلائل لمن يعقل، ومداخل لمعرفة عظمة الخالق وحكمته. ومع ذلك، لا تدعو السورة إلى تحميل الظواهر الكونية ما لا تحتمله، ولا إلى تكلف إشارات علمية لم يقدّم عليها دليل، وإنما تدعو إلى تأمل ما خلق الله، والانتفاع بما كشفه العلم الصحيح من سنن الكون، مع بقاء القلب موصولاً بالخالق الذي أوجد هذه السنن وأجرى الكون وفق حكمته.

غير أن المشكلة التي تكشفها السورة ليست قصص النعم، بل غفلة الإنسان عن دلالتها؛ فقد يرى آثار القدرة ثم ينسب العبادة إلى غير الله، وينتفع بالرزق ثم يجحد المنعم، ويعرف فضل الله ثم يخالف أمره. ولهذا تتكرر في السورة مواجهة الشرك، وقصص شبهات المكذبين، وبيان تناقضهم في الاعتقاد والسلوك، واستحضار سنن الله في الأمم التي كذبت رسلها. فالشرك ليس مجرد خطأ في تسمية المعبود، بل انحراف في أصل المعرفة والعبودية، يفسد نظرة الإنسان إلى الكون، ويقطع الصلة بين النعمة والشكر، ويجعله عرضة لأن يستبدل بهدى الله أهواءه وموروثاته.

ومن أعمق معاني السورة أنها لا تفصل العقيدة عن الحياة؛ فالإنسان الذي خلقه الله ورزقه، وجعل له السمع والأبصار والأفئدة، مسؤول عن موقفه من هذه النعم. والمال والولد والأمن والمسكن وسائر أسباب العيش ليست امتيازات بلا تبعه، وإنما أمانات تقتضي الحمد والطاعة وأداء الحقوق. ومن هنا تنتقل السورة من عرض النعم إلى مشاهد البعث والجزاء، لتقرر أن الحياة ليست رحلة استهلاك تنتهي بالموت، بل ابتلاء يعقبه حساب، وأن ما بين يدي الإنسان اليوم سيصبح غدا موضع سؤال وجزاء.

وعندما تبلغ السورة هذا الموضوع، تنقل الإيمان من دائرة الاعتقاد إلى ميدان السلوك، فتقرر الأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغى، وتؤكد الوفاء بالعهد، وتحذر من اتخاذ الأيمان وسيلة للغدر والخذاع. وهنا يظهر أن التوحيد الذي تقرر السورة ليس دعوى لسانية معزولة عن واقع الإنسان، بل أصل تتفرع عنه أخلاقه ومعاملاته ومواقفه؛ فمن عرف الله حق المعرفة استقام على أمره، ومن شكر نعمته أحسن استعمالها، ومن آمن بالحساب راقب نفسه، ومن صدق في عبوديته لم يجعل مصالحه وأهواءه فوق الحق والعدل.

وتعود السورة بعد ذلك إلى قضية الوحي، فتواجه الشبهات المثارة حول القرآن، وتكشف أن الإعراض عن الحق لا ينشأ دائما من غياب الدليل، بل قد يكون سببه الهوى، أو الإيثار المتعمد للدنيا، أو الإصرار على الموروث الباطل. وفي المقابل، تفتح باب التوبة لمن رجع إلى الله وأصلح، وتعرض نموذج القرية التي أذاقها الله الجوع والخوف بعد أن كفرت بأئمة، لتجسد على مستوى الجماعة ما قرره الآيات على مستوى الفرد: أن النعمة إذا قوبلت بالجحود، وأنعم الله بها على قوم ثم قابلوها إحسانه بالإعراض، فإنهم يعرضون أنفسهم لعواقب لا يأمنونها.

ثم تختتم السورة بإبراهيم عليه السلام، إمام التوحيد والشكر، الذي اجتبه الله وهداه إلى صراط مستقيم، وأمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم باتباع ملته الحنيفية. وكأن السورة، بعد أن عرضت صور النعمة والجحود، تقدم للإنسان النموذج الذي ينبغي أن يقتدي به:

عبد عرف ربه، وأخلص له، وشكر نعمه، وثبت على الحق. ثم ترسم للأمة طريق أداء رسالتها: الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، والعدل عند مقابلة العدوان، والصبر أمام الأذى والمكر، حتى تختتم بوعده الله العظيم: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

وهكذا تنتظم موضوعات سورة النحل في مسار إيماني وتربوي متكامل: معرفة الله، وتأمل آياته، وشكر نعمه، وإخلاص العبادة له، والاستعداد للقائه، والاستقامة على شرعه، والدعوة إلى سبيله، والصبر على طريق الحق. إنها لا تريد من الإنسان أن يمر على النعم مرور الغافلين، ولا أن يعرف الحق ثم يعطله في حياته، بل تدعوه إلى أن يتحول علمه إلى عبودية، وإيمانه إلى أخلاق، وشكره إلى عمل، ودعوته إلى إصلاح، وصبره إلى ثبات.

ومن هنا، فإن الدخول إلى سورة النحل ليس مجرد انتقال بين آيات تُشرح ومعاني تُفسر، بل هو دخول إلى مدرسة قرآنية تعيد ترتيب علاقة الإنسان بربه، وبأكون الذي يعيش فيه، وبالنعم التي يتقلب فيها، وبالناس الذين يتعامل معهم، وبالمصير الذي ينتظره. والسؤال الذي تضعه السورة أمام كل قارئ ليس: كم نعمة أحصيت؟ بل: هل عرفت المنعم؟ وليس: كم دليلاً رأيت؟ بل: هل قادتك الدليل إلى الإيمان والعمل؟ وليس: ماذا تملك في هذه الحياة؟ بل: كيف استعملت ما أنعم الله به عليك، وماذا أعددت للقاء الله؟

إنها سورة توقظ القلب من الغفلة، وتحرر العقل من أسر الشرك والوهم، وتربي الضمير على الشكر والمسؤولية، وتوجه الإرادة إلى العمل الصالح؛ حتى يعيش الإنسان موحداً في اعتقاده، شاكراً في رخائه، عادلاً في معاملاته، محسناً في عمله، صابراً في ابتلائه، ثابتاً على سبيل ربه، راجياً رحمته وفضله.

المقطع الأول: من سلطان الله إلى هداية الإنسان

تفسير سورة النحل: الآيات ١-٩.

قال الله تعالى:

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ يَزِيلُ الْفَلَاحُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ۝ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْقَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۝ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغِيهِ إِلَّا يَشِقُّ الْإِنْسَانُ إِذْ رُكِبَ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ ۝ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ١-٩].

يفتح الله سبحانه وتعالى السورة بقوله: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، فيضع الإنسان أمام حقيقة تتجاوز حدود تقديره العاجل للأحداث: أن أمر الله نافذ، وأن ما قضى سبحانه بوقوعه لا يمتنع استبعاد المستبعدين، ولا يبطله استهزاء المستهزئين، ولا يتقدم على أجله استعجال المستعجلين. وقد ذهب المفسرون إلى أن المراد بالأمر هنا ما توعد الله به من العذاب أو قيام الساعة، واللفظ يتسع لما يدل عليه السياق من تحقيق الوعيد وقربه ووقوعه، من غير جزم بتعيين معنى واحد دون دليل مرجح.

وليس النهي عن الاستعجال مجرد جواب عن سؤال المشركين عن موعد العذاب، بل يحمل توجيهاً أوسع: ألا يجعل الإنسان تصوره المحدود للزمن معياراً للحكم على وعد الله ووعيده. فقد يرى الظالم نفسه في سعة، ويرى المظلوم تأخر الفرج، ويظن الغافل أن استمرار النعمة دليل على صحة طريقه؛ لكن شيئاً من ذلك لا يغير الحقائق التي أخبر الله بها. فالإهمال ليس إهمالاً، وتأخر الجزاء عن الوقت الذي قضاه الله لا يعني سقوطه، كما أن طول الطريق لا يدل على ضياع الغاية.

وهذه الهداية تضبط موقف المؤمن من أحداث الحياة؛ فلا يستعجل النتائج على وجه ينافي الصبر والحكمة، ولا يتخذ تأخر النصر مبررًا للتراجع عن الحق، ولا يغتر بما يملكه أصحاب الباطل من أسباب القوة. وفي المقابل، لا يتحول الإيمان بوعده الله إلى انتظار سلبي يعطل العمل؛ فالمؤمن مأمور بالأخذ بالأسباب المشروعة، والصبر على تكاليف الحق، والثقة بأن العاقبة إلى الله. إنه يعمل بما أمر به، ولا يشترط على الله أن تأتي النتائج وفق توقيته ورغبته.

ثم يزه الله سبحانه نفسه عن الشرك بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. وهنا ينتقل الخطاب من تقرير سلطان الله إلى إبطال التصور الذي يناقض هذا السلطان. فكيف يُجعل للمخلوق نصيب من العبادة، وهو لا يملك لنفسه خلقًا ولا تدبيرًا مستقلًا؟ وكيف تُصرف العبادة لمن لا يملك النفع والضرر استقلالًا، ويُعرض عن عبادة الخالق الذي بيده أمر الوجود كله؟

إن الشرك ليس خطأ نظريًا معزولًا عن حياة الإنسان، بل هو اختلال في أصل العلاقة بين العبد وربّه؛ إذ تُصرف العبادة لغير مستحقها، وتُمنح المخلوقات منزلة لا تليق بها. ومن هنا كان تصحيح التوحيد تحريرًا للإنسان من الخضوع التعبدية لما لا يستحق العبادة، وتوجيهًا لقلبه وعمله إلى الله وحده. ولا يعني ذلك أن كل محبة أو طاعة أو استعانة بمخلوق من الشرك؛ فالمحبة الطبيعية، والتعاون المشروع، والاستعانة بالأسباب المقذور عليها أمور يقرها الشرع، وإنما المحذور أن يُصرف لغير الله شيء من العبادة أو يُجعل له ما يختص به سبحانه.

وبعد تقرير التنزيه، يبين الله سبحانه طريق وصول هذه الحقيقة إلى البشر، فيقول: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾. فالإنذار بالتوحيد ليس فكرة بشرية نشأت من تأملات الفلاسفة، ولا دعوة يستمد أصحابها سلطتهم من أهواء الناس، بل هو وحي من الله، أنزله على من اصطفى من عباده. والروح

هنا هو الوحي الذي تحيا به القلوب، ويظهر هذا المعنى في اقترانه بالإنذار والدعوة إلى التوحيد.

وتأمل ترتيب المعاني: أمر إلهي لا يتخلف، وتنزيهه للخالق عن الشرك، ثم وحي يبلغ الناس حقيقة التوحيد. فكأن هذا الافتتاح يقرر أن قضية الإنسان الكبرى ليست مجرد معرفة ما يجري في الكون، بل معرفة ربه، وتلقي هدايته، وتحديد موقفه من أمره.

ثم يأتي مضمون الرسالة في أوجز عبارة وأعظمها أثرًا: ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾. فالتوحيد هو الأصل، والتقوى مقتضاه العملي. وليس المراد بالتقوى مجرد الشعور بالخوف، بل أن يجعل العبد بينه وبين سخط الله وقاية، بامتنال أوامره واجتناب نواهيه، فيعبد الله على علم، ويراقب حدوده في السر والعلن، ويزن أقواله وأفعاله بميزان شرعه.

وهنا تتضح الصلة بين العقيدة والسلوك: فكلما رسخ في القلب أن الله وحده المستحق للعبادة، وأنه سبحانه يعلم السر والعلن، كان ذلك أدعى إلى إخلاص العبادة، وأبعد عن الرياء، وأقوى على مقاومة الهوى. ومن عرف أن الرزق بيد الله لم يطلبه بمعصيته، ومن أيقن أن الحكم له سبحانه لم يجعل رضا الناس مقدمًا على أمره، ومن آمن بالجزاء لم يستبح حقوق الخلق حين يغيب الرقيب البشري.

وهكذا لا يبقى التوحيد شعارًا يُرفع، بل يصبح أصلًا يحكم اختيارات الإنسان؛ في عبادته، وكسبه، وعلاقاته، ومواقفه من الظلم والحق، وفي قدرته على مقاومة ضغط المجتمع حين يدعوه إلى ما يخالف أمر الله.

ثم يوجه الله سبحانه النظر إلى أصل هذا الوجود، فيقول: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. فالكون ليس موجودًا بلا خالق، ولا قائمًا على العشب، بل خلقه الله بالحق، وفق حكمته وتقديره. وهذه الحقيقة تنقل التوحيد من دائرة الخبر الذي يُتلقى إلى دائرة الدليل الذي يُتأمل: فالمؤمن لا يؤمن بالله مع إغلاق عقله عن آيات خلقه، وإنما يجمع بين صدق الوحي والتفكير فيما أقام الله من الشواهد.

وإذا كان الخلق بالحق، فإن حياة الإنسان لا يصح أن تُفهم بوصفها فترة عابرة لا غاية وراءها ولا حساب بعدها. فالإيمان بأن الله خلق السماوات والأرض بالحق يؤسس للنظر إلى الحياة باعتبارها ميداناً للتكليف والابتلاء، وأن ما يملكه الإنسان من عقل وقدرة ومال وجاه ليس مستقلاً عن خالقه، بل هو أمانة يُسأل عن استعمالها. ومن هنا تتصل دلالة الخلق بمسؤولية الإنسان، وتتهبأ النفس لفهم ما سيأتي في السورة من حديث عن النعم والشكر والبعث والحزاء.

ثم يخص الله الإنسان بالذكر بعد خلق السماوات والأرض، فيقول سبحانه: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾. إنه انتقال من سعة الكون إلى أصل الإنسان، ومن المشهد العظيم إلى المخلوق الذي قد يغفل عن حقيقة نشأته. فالإنسان الذي بدأ خلقه من نقطة ضعيفة، ثم منحه الله السمع والبصر والعقل والبيان، قد يستعمل هذه المواهب في الجدل بالباطل ومخاصمة الحق، بدل أن تكون وسائل لمعرفة ربه وشكره.

وليس في الآية ذم للعقل أو للجدال القائم على الحجة، فالقرآن نفسه يقيم الأدلة ويدعو إلى النظر. إنما موضع الإنكار أن يتحول البيان إلى أداة للمكابرة، وأن يطلب الإنسان الغلبة في الخصومة بدل الوصول إلى الحق. فقد يعرف المرء من الأدلة ما يكفي لإرشاده، ثم يمنعه الكبر أو المصلحة أو ضغط الجماعة من اتباع ما عرف. وحينئذ لا تكون المشكلة في نقص المعلومات وحده، بل في موقف القلب من الحق.

وهذه قضية تتجاوز الجدل العقدي إلى واقع الحياة؛ فكثير من الخصومات تستمر لأن الحق غامض بالضرورة، بل لأن النفوس قد تتعلق بالغلبة، أو تخشى الاعتراف بالخطأ، أو تجعل المحافظة على المكانة أهم من تصحيح الموقف. ومن هدي الآية أن يتعلم المؤمن الإنصاف، وأن يفرح بظهور الحق ولو جاء على خلاف رأيه، وألا يجعل قدرته على الكلام دليلاً على صحة قوله. فالعلم الذي لا يورث تواضعاً وإنصافاً قد يتحول إلى وسيلة للخصومة، بينما العلم النافع يقود إلى معرفة الحق والعمل به.

ثم يفتح الله أمام الإنسان باباً آخر من أبواب الاعتبار، فيقول: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾. فبعد ذكر أصل الإنسان وما قد يقع فيه من خصومة، يأتي ذكر ما سخره الله له من الأنعام، بما فيها من الدفء والغذاء والمنافع. وفي هذا الانتقال تذكير بأن حياة الإنسان تقوم على نعم لم ينشئ أصولها بنفسه، ولم يستقل بإيجادها أو التحكم في جميع أسبابها.

فاللباس الذي يقي البرد، والغذاء الذي يحفظ الحياة، والمنافع التي تقوم بها مصالح الناس، كلها من فضل الله. والاعتراف بهذا الفضل يقتضي شكر المنعم، كما يقتضي حسن الانتفاع بالنعمة، فلا تتحول إلى وسيلة للظلم أو الإسراف أو التكبر على المحتاجين. ومن شكر النعمة أن يؤدي الإنسان ما أوجبه الله في ماله، وأن يراعي حقوق من تلزمه نفقتهم، وأن يحسن إلى الحيوان، وألا يتخذ ما سخره الله له مبرراً للقسوة أو العبث.

والآية تقرر أصل الانتفاع بالأنعام في وجوه المنافع المذكورة، لكن تفاصيل الأحكام المتعلقة بالذبح والأطعمة والحقوق والواجبات تُعرف بجمع الأدلة الشرعية في أبوابها؛ فلا يصح أن تُستخرج جميع أحكام المعاملات أو الذبائح من مجرد ذكر النعمة. وهذه قاعدة لازمة في التفسير الفقهي: أن يبين المفسر ما تدل عليه الآية، ثم يرد التفاصيل إلى أدلتها من غير تحميل للفظ ما لا يحتمل.

ثم يضيف الله سبحانه إلى المنافع معنى قد يغفل عنه من يقصر نظره على الحاجات المادية، فيقول: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾. فالأنعام مصدر منفعة، وهي كذلك مما تتعلق به النفس من السرور بما ترى من حسن المنظر وانتظام الحياة. وقد ذكر الله وقت الإراحة ووقت التسريح لما يظهر فيها من اجتماع الأنعام أو انتشارها، وما يصاحب ذلك من جمال مألوف في حياة الناس.

وفي هذا إقرار بأن الإسلام لا يحصر الإنسان في الضرورات المادية، ولا يطلب منه أن يتعامل مع الحياة بمجمود أو أن ينكر ما أودع الله فيها من وجوه الجمال المباح. بل يعلم

الإنسان أن يتذوق النعمة، ويستمتع بالجلال، ويستحضر فضل الله في ذلك. غير أن التمتع المشروع لا ينبغي أن يتحول إلى إسراف أو خيلاء أو مباهاة تُفسد القلب وتؤذي الآخرين. فالجمال نعمة حين يقود إلى الشكر، وقد يصبح فتنة حين يقود إلى الغرور.

ثم يبين الله منفعة الأنعام في حمل الأثقال، فيقول سبحانه: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا يَشِقُّ الْأَنْفُسَ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾. فالرحلة التي تشق على الإنسان، وما فيها من تعب حمل الأمتعة ومشقة المسافة، يسر الله لها أسباباً تخفف العبء وتعين على بلوغ المقصد. ثم يختم الآية بذكر الرأفة والرحمة، حتى لا يقف الإنسان عند المنفعة الظاهرة، بل يدرك ما فيها من فضل الله وإحسانه.

ومن هنا تنشأ نظرة إيمانية إلى وسائل الحياة: فالأسباب المادية ليست منفصلة عن ربوبية الله، ولا تناقض دراستها والاستفادة منها التوكل عليه. بل إن تعلم وسائل النقل، وتطوير أدوات العمل، وتيسير حاجات الناس، كلها أمور يمكن أن تكون من وجوه عمارة الأرض النافعة إذا انضبطت بالشرع وحفظت بها الحقوق. فالمؤمن لا يحتقر الأسباب باسم التوكل، ولا يؤله الأسباب فيظن أنها تعمل مستقلة عن مشيئة الله؛ بل يستعملها، ويشكر الله عليها، ويعلم أن القدرة على الانتفاع بها من فضله.

وتتجلى في الآية كذلك قيمة تخفيف المشقة عن الناس. فما يخفف عن المسافر عناءه، أو يعين العامل على عمله، أو يسر للناس بلوغ مصالحهم، هو من جنس المنافع التي يذكر الله بها عباده. ومن ثم فإن استحضر رحمة الله في النعم ينبغي أن ينعكس رحمة في سلوك الإنسان؛ فلا يعتمد المشقة بغير حاجة، ولا يستغل حاجة الآخرين، ولا يجعل ما يملكه من وسائل القوة أو المال سبباً لإعانتهم.

ثم يذكر الله الخيل والبغال والحمير، فيقول تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. فيجمع بين الركوب والزينة، ويختم ببيان سعة الخلق الإلهي. وفي هذا

تذكير بأن منافع المخلوقات لا تنحصر فيما ألفه الناس في زمن معين؛ فאלله يخلق ما يشاء، ويهيئ لعباده من أسباب الانتفاع ما لم يكن معلوماً لهم.

ولا يصح الجزم بأن خاتمة الآية تشير إلى اختراع محدد أو وسيلة بعينها؛ فاللفظ أعم من ذلك، ويشمل ما لا يعلمه الناس من مخلوقات الله. لكن اتساع المعارف البشرية وتنوع الوسائل التي ظهرت عبر العصور يذكران الإنسان بأنه لا يحيط بجميع ما في الخلق من إمكانات ومنافع. وكلما اتسعت معرفته، ازداد احتياجه إلى التواضع العلمي، وإلى التمييز بين ما يثبتته الدليل وما لا يزال في دائرة الاحتمال.

ومن مقتضيات هذا المعنى أن يستخر الإنسان ما يتعلمه من علم وما يمتلكه من قدرة في تحقيق المصالح المشروعة، وأن يراعي في تطوير وسائل الحياة حقوق الناس وسلامتهم، وألا يجعل التقدم المادي مبرراً للإفساد. فالعلم الذي ينفصل عن المسؤولية قد يضاعف الضرر، أما العلم الذي يقترن بالتقوى فيسعى إلى النفع والعدل وحفظ مصالح الخلق.

وبعد هذا العرض المتتابع للخلق والنعم، ينتقل الله سبحانه إلى قضية الهداية، فيقول: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. والقصد هو استقامة الطريق ووضوحه، أي إن الله سبحانه يبين الطريق المستقيم، بما أقام من الحجج، وأرسل من الرسل، وأنزل من الكتب. ومنها طرق جائزة منحرفة عن الحق، يسلكها الناس حين يعرضون عن الهدى أو يخالفونه.

وهذا الختام بالغ الأهمية في بناء المقطع؛ لأن الآيات السابقة عرضت دلائل القدرة ومظاهر النعمة، ثم جاء البيان ليقرر أن الانتفاع بالخلق وحده لا يكفي لتحقيق الهداية. فقد ينتفع الإنسان بأسباب الحياة، ويدرك بعض أسرار الكون، ويبلغ من العلم والصناعة ما يبلغ، ثم يضل عن الغاية التي خلّق لها إن أعرض عن هداية الله. فالمشكلة ليست دائماً في غياب الدليل، بل قد تكون في طريقة استقبال الإنسان له، وفي استعداده للانقياد للحق.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يقرر أن الهداية واقعة تحت مشيئة الله، وأنه سبحانه قادر على هداية الناس جميعاً. لكن هذا لا يسوغ للعبد أن يحتج بالقدر على معصيته، أو يتخذ المشيئة الإلهية ذريعة لتترك التكليف؛ فقد بين الله لعباده سبيل الحق، وأمرهم باتباعه، ونهاهم عن طرق الضلال، وأقام عليهم الحجة. وقد جمع القرآن بين إثبات مشيئة الله، وبيان مسؤولية الإنسان عن موقفه من الهدى؛ فلا يُفصل أحد الأصلين عن الآخر.

ومن الهدايات العملية هنا أن المؤمن لا يكفي بطلب النجاح الدنيوي، بل يسأل الله الهداية إلى الطريق المستقيم، ويحرص على معرفة الحق من مصادره الصحيحة، ويحاسب نفسه على أثر ما يتعلمه في عمله. فليس كل طريق نافع في جانب من جوانب الدنيا طريقاً مستقيماً في ميزان الشرع، وليس كل ما يحقق مكسباً عاجلاً مشروفاً في غايته أو وسيلته. إنما يستقيم سير الإنسان حين يجمع بين الأخذ بالأسباب والالتزام بهداية الله.

وبذلك يتكامل المقطع الأول في بناء معناه: يبدأ بتقرير نفاذ أمر الله، وينزه الخالق عن الشرك، ويبين أن الوحي يدعو إلى التوحيد والتقوى، ثم يعرض خلق السماوات والأرض والإنسان والأنعام وما فيها من منافع وجمال ورحمة، ليختم ببيان أن الطريق المستقيم لا يُعرف على وجهه إلا بهداية الله.

وهذه الحركة ليست انتقالاً بين موضوعات متفرقة، بل تأسيس لرؤية متكاملة: الله هو الخالق، وهو المنعم، وهو الذي أنزل الوحي، وهو الذي يبين طريق الحق؛ ولذلك فإن مقتضى الإقرار بربوبيته أن يُفرد بالعبادة، وتُشكر نعمه، وتُتبع هدايته، وتُستعمل المواهب التي منحها للإنسان في طاعته لا في محاربته أو الإعراض عن أمره.

ومن هنا تنهأ السورة للانتقال إلى آيات كونية أخرى، لا لتكرار تعداد النعم، بل لتوسيع دائرة الاستدلال، وإظهار أن ما يشاهده الإنسان في الماء والنبات والليل والنهار والشمس والقمر والبحر، وما يحيط به من أسباب الحياة، كله يدعو إلى توحيد الله وشكره.

فإذا كانت الآيات الأولى قد أسست العلاقة بين الخلق والهداية، فإن ما يليها يفصل بعض دلائل هذه العلاقة، ويكشف ما يترتب عليها من إيمان أو جحود. والله سبحانه أعلم بمراده، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

المقطع الثاني: النعم الكونية والاستدلال بها على تفرد الله بالخلق والتدبير

تفسير سورة النحل: الآيات ١٠-٢١

قال الله تعالى:

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ
الزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿١١﴾
وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ
الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِيَتَاكَوَا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً ثَلْثُوسُوتًا وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ مَوَازِيرَ
فِيهِ وَلِتَقْبَلُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا
وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ
أَفَلَا تُذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا
تُسِرُّونَ وَمَا تُنْفِكُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾
أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَكَّانَ يَتَعَفَّوْنَ ﴿[النحل: ١٠-٢١].﴾

التفسير

بعد أن قرر الله سبحانه وتعالى في المقطع الأول أصل التوحيد، وبين أن الخلق قائم بالحق،
وأن الوحي هو سبيل الهداية، وأن ما يحيط بالإنسان من النعم دليل على رحمة خالقه،
ينتقل البيان إلى تفصيل هذه الحجة من خلال مشاهد كونية متتابعة. فيبدأ بالماء الذي تقوم
عليه حياة الإنسان والحيوان والنبات، ثم يعرض نظام الزمن والأجرام السماوية، وما بث
الله في الأرض من مخلوقات متنوعة، ثم ينتقل إلى البحر والجبال والأنهار والسبل والنجوم،
قبل أن يجمع هذه الشواهد كلها في سؤال حاسم: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾. وهذا يتدرج
الاستدلال من مشاهدة النعمة إلى إدراك قدرة المنعم، ثم من إدراك القدرة إلى إفراد الله
بالعبادة، ثم إلى كشف التناقض في عبادة ما لا يخلق ولا يملك لنفسه حياة مستقلة.

يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾. يفتح الله هذه الآيات بتعيين مصدر نعمة تتكرر أمام الإنسان حتى يألفها، وربما غفل عن عظيم قدرها: الماء. فقلوه سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي﴾ يرد النعمة إلى خالقها، ويوقظ القلب من الاعتیاد الذي قد يحجب عنه دلالات الأشياء المألوفة. وهذا الماء الذي ينزل من السماء يشرب منه الإنسان، وينتفع به في حياته، وتنبت به النباتات التي يري فيها أنعامه. فالماء الواحد تتعدد منافعه، وتتسع آثاره لتشمل الإنسان والحيوان والنبات، في صورة من صور إحكام التدبير وتكامل أسباب الحياة.

وقوله سبحانه ﴿مِنْهُ شَرَابٌ﴾ يذكر الإنسان بأقرب وجوه حاجته إلى الماء، وهو حفظ حياته، ثم يتجاوز به إلى ما وراء حاجته المباشرة، فيقول: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾. والإسامة هي إطلاق الأنعام لترعى، والشجر في لسان العرب يشمل هنا ما تنبتة الأرض من نبات ترعاه الأنعام. فالماء الذي ينتفع به الإنسان مباشرة هو نفسه سبب في قيام غذاء الحيوان الذي ينتفع الإنسان به. وتتكشف بهذا الصلة بين حلقات المعاش؛ فالماء ينبت المرعى، والمرعى يغذي الأنعام، والأنعام توفر للإنسان الغذاء واللباس والمنافع.

إنها ليست نعمًا متفرقة لا رابط بينها، بل أسباب متداخلة تتكامل آثارها، ولا يستغني بعضها عن بعض في نظام الحياة الذي أوجده الله. وكلما تأمل الإنسان هذه الروابط، أدرك أن ما يصل إليه من منفعة لا ينشأ من حمده وحده، وإن كان حمده سببًا معتبرًا في تحصيلها، بل يعتمد كذلك على أسباب كثيرة لم يخلقها بنفسه ولم يملك أصل وجودها. فالزراع يحرق ويسقي، لكنه لا يخلق الماء ولا يهب الأرض خصوبتها ولا يملك جميع الظروف التي يتوقف عليها نمو الزرع. ومن هنا يتعلم المؤمن الجمع بين العمل والشكر، وبين تقدير الأسباب والاعتراف بفضل مسببها؛ فلا ينسب الثمرة إلى حمده وحده، ولا يتخذ الإيمان ذريعة لترك العمل.

ثم يفصل الله سبحانه بعض آثار هذا الماء فيقول: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالرَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. ينتقل البيان من ذكر أصل

النعمة إلى عرض صورها المتنوعة؛ فالزرع الذي تقوم عليه أقوات الناس، والزيتون بما فيه من غذاء ومنافع، والنخيل والأعناب بما يقدمانه من ثمار، ثم سائر الثمرات التي تتعدد ألوانها ومذاقاتها وخصائصها. وهذا التعداد لا يراد به استقصاء أنواع النبات، وإنما يقاظ الشعور بسعة العطاء الإلهي وتنوعه.

والتعبير بقوله ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ يلفت إلى أن هذه المنافع محيية للإنسان في أصل نظام الخلق، وأن الله جعل في الأرض أسبابًا ينتفع بها في غذائه ومعاشه. ولا يعني ذلك أن كل فرد يحصل على جميع هذه النعم بالقدر نفسه، أو أن توزيع الأرزاق يخلو من الابتلاء والتفاوت، وإنما يعني أن الله أوجد للناس من أصول المنافع وأسبابها ما تقوم به مصالحهم، وكلفهم أن يسعوا في تحصيل أرزاقهم بالطرق المشروعة، وأن يتعاونوا على سد حاجات بعضهم، وألا يحولوا تفاوت ما بأيديهم إلى ظلم أو استعلاء.

وهنا تبرز دلالة تربية واجتماعية؛ فالنعم الزراعية لا تقوم على الماء والترية وحدهما في حياة المجتمعات، بل تحتاج كذلك إلى العمل والمعرفة وحفظ الموارد وتبادل المنافع. وحين يستحضر الإنسان أن أصل هذه الخيرات من فضل الله، يصبح أقدر على تجاوز الأنانية التي تحصر النعمة في ملكه الشخصي، وأقرب إلى إدراك ما عليه من واجب في حفظها وإعانة المحتاجين إليها. فالشكر لا يقتصر على حركة اللسان، بل يظهر في أداء الحقوق، وتجنب الإفساد، وعدم تبذير الأقوات، والإحسان إلى من يحتاج إلى الطعام.

غير أن الله سبحانه لا يجعل مجرد رؤية هذه المظاهر كافيًا لتحقيق الهداية، بل يجدد الفعل الذي يفتح للإنسان باب الانتفاع بدلائنها، فيقول: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. فالمقصود ليس أن تمر صور النعم أمام الأبصار فحسب، بل أن يتفكر الإنسان في منشئها، وما بينها من علاقات، وما تدل عليه من القدرة والحكمة والتدبير. والتفكر هنا عبادة عقلية تقود إلى معرفة الله، لا تأمل ذهني منفصل عن الإيمان والعمل.

وقد يرى شخصان المشهد نفسه: يرى أحدهما المطر والنبات والثمر، فلا يتجاوز إحساسه بالمنفعة الآتية؛ ويرى الآخر المشهد نفسه، فيستحضر قدرة الله ورحمته، ويشعر بمسؤوليته عن النعمة، ويزداد يقيناً بأن الخلق لم يوجد عبثاً. والفرق بينها ليس بالضرورة في اختلاف ما يشاهدانه، بل في مقدار التفكير الذي ينتقل بالمشاهدة من ظاهرها إلى دلالتها. ولهذا يربط القرآن بين آيات الكون وبين عمل القلب والعقل؛ لأن المعرفة التي لا تتجاوز ظاهر الأشياء قد تحقق بعض المنافع، لكنها لا تؤدي وحدها إلى الغاية الإيمانية التي يدعو إليها الوحي.

ثم يوسع الله سبحانه مجال النظر من الأرض وما ينبت فيها إلى النظام الذي تنتظم به الحياة، فيقول: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. فبعد ذكر الماء والنبات، اللذين تقوم بهما وجوه من الغذاء والمعاش، يأتي ذكر الليل والنهار وما يرتبط بهما من انتظام الزمن، والشمس والقمر وما ينتفع به الإنسان من ضوءها ومنازلها، والنجوم التي جعل الله فيها دلائل يهتدي بها الناس.

والتسخير في الآية يدل على أن هذه المخلوقات تجري وفق ما أودعه الله فيها من سنن وتقدير، وأنها ليست آلهة مستقلة تملك مصير الإنسان، ولا قوى خارجة عن سلطان خالقها. وقد انتفع البشر بتعاقب الليل والنهار في تنظيم أعمالهم، وبحركة الأجرام السماوية في معرفة الأزمنة، وبالنجوم في الاهتداء في الأسفار. وهذه المنافع لا تستلزم أن تكون جميع الظواهر الكونية قد سُخِّرَت للإنسان وحده من كل وجه، وإنما تبين ما جعل الله له فيها من وجوه الانتفاع والدلالة.

وفي انتظام الليل والنهار درس يتجاوز معرفة الوقت؛ فالحياة لا تستقيم إذا اختل التوازن بين العمل والراحة، كما أن العمر نفسه يتقدم في تعاقب الأيام دون أن يملك الإنسان إيقافه. فالليل والنهار آيتان في الكون، وهما كذلك تذكير بتقلب أحوال الإنسان، وبأن الزمن نعمة ومسؤولية. ومن فقه النعمة أن يعرف العبد قدر وقته، فلا يضيعه في ما لا ينفع، ولا

يستغرق في العمل حتى يضيع حقوق نفسه وأهله، ولا يجعل الراحة ذريعة إلى تعطيل الواجبات.

أما قوله تعالى ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ فيؤكد أن ما قد يبدو للناظر عظيماً أو بعيداً أو خارجاً عن قدرته، لا يخرج عن سلطان الله. فالنجوم، على عظمها في نظر البشر، مخلوقات مبروبة، تجري وفق ما قدره الله لها. وفي ذلك تصحيح لموقف الإنسان من الكون؛ إذ لا ينبغي أن تتحول رهبة الظواهر الكونية أو الجهل بأسبابها إلى اعتقاد في قوى تستحق العبادة، ولا أن تُنسب إلى الأجرام السماوية قدرة مستقلة على جلب النفع أو دفع الضر.

ومن هنا يظهر وجه اتصال الآية بمواجهة الشرك التي تتكرر في السورة. فالقرآن لا يدعو الإنسان إلى إهمال الكون، بل إلى معرفته معرفة تحرره من الخرافة، وترد الظواهر إلى خالقها، وتوجه ما يتعلمه إلى المنفعة المشروعة. ولا تعارض بين دراسة الأسباب الكونية وبين الإيمان بالله؛ لأن معرفة الكيفية التي تجري بها ظاهرة ما لا تنفي أن الله هو خالق الكون وخالق أسبابه، كما أن الإيمان لا يميز نسبة ما لم يثبت إلى الظواهر أو ادعاء أسرار لا يدل عليها الدليل.

ويختتم الله هذه الآية بقوله ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. وقد جاء التعبير هنا بالجمع، فقال ﴿لَآيَاتٍ﴾، بعد أن قال في الآية السابقة ﴿لَآيَةً﴾، وهو مناسب لتعدد وجوه الدلالة في نظام الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم. كما خص هذه الدلالات بأولي العقول؛ لأن العقل الذي ينفع بآيات الله هو الذي يتجاوز مجرد رصد الظاهرة إلى فهم دلالتها، ويجمع بين معرفة الأسباب والإقرار بأن لها خالقاً مدبراً.

والعقل في المنهج القرآني ليس خصماً للوحي، ولا بديلاً عنه، بل هو أداة لفهم دلائل الله وتلقي هدايته. وإذا استقل الإنسان بعقله عن الوحي في أمور الغيب والعبادة، ضل في مواضع لا يستقل العقل بإدراك تفاصيلها، وإذا عطل عقله عن النظر في آيات الكون،

حرم نفسه من وجوه الاعتبار التي دعا الله إليها. والهداية الراشدة تجمع بين عقل يتفكر، ووجي يرشد، وقلب يخضع للحق، وجوارح تعمل بمقتضاه.

ثم يعود البيان إلى الأرض، فيقول سبحانه: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾. والذرة هو الخلق والإظهار والتكثير، والمعنى أن الله خلق في الأرض ما ينتفع به الناس، مختلفًا ألوانه وأصنافه وصفاته. ويدخل في ذلك ما بثه الله من نبات وحيوان وسائر المخلوقات التي تتنوع في صورها ومنافعها.

إن تنوع الخلق لا يقل دلالة عن أصل وجوده؛ فالأرض الواحدة تنتج أصنافًا متعددة، والماء الذي يبدو في ظاهره متشابهًا يسهم في إنبات ثمار تختلف في ألوانها وطعومها ومنافعها. ويجد الإنسان في هذا التنوع ما يحفظ حياته ويوسع أسباب معاشه، كما يجد فيه مجالاً للمعرفة والتأمل. وكلما تقدم في دراسة المخلوقات، تكشف له فروق وخصائص لم يكن يعلمها، من غير أن يعني ذلك أنه أحاط بأسرار الخلق كلها.

ويختم الله الآية بقوله ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾. والتذكر هنا يعيد الإنسان إلى الحقيقة التي قد يغفل عنها بسبب الآفة: أن هذه المخلوقات ليست موجودة باستقلال عن الله، وأن ما ينتفع به منها ليس حقًا له بلا قيد، بل نعمة تستوجب الشكر وتحمل مسؤولية الاستخدام. وقد جاء التعبير بالتذكر بعد التفكير والعقل؛ فكان السياق يجمع أعمالاً متكاملة: يتفكر الإنسان في الظواهر، ويعقل دلالاتها، ثم يتذكر بها خالقه وحقه عليه.

وهذه الهداية ذات أثر في تعامل الإنسان مع البيئة والموارد. فالانتفاع بما خلق الله في الأرض لا يعني إفسادها أو استنزاف مواردها بغیر اعتبار للعواقب، كما أن تعظيم النعمة لا يقتضي تحريم ما أباح الله منها. وإنما يقتضي الاعتدال، وحسن التدبير، والابتعاد عن الإفساد والضرر، وفق ما تدل عليه الأحكام الشرعية والقواعد العامة في حفظ المصالح ودفع المفاسد. ولا يصح أن تُحمل الآية وحدها تفاصيل السياسات البيئية المعاصرة، لكنها تؤسس نظرة تجعل المخلوقات موضع اعتبار وشكر ومسؤولية، لا مجرد أشياء يُستهلك منها بلا حساب.

ثم ينتقل الله سبحانه إلى البحر، فيقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَازِيرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. وبعد عرض ما في البر والسماء، يذكر الله البحر بما فيه من أرزاق ومنافع وطرق للتنقل والتجارة. فينتفع الناس بما يخرج منه من طعام، ويستخرجون منه اللؤلؤ وغيره من الحلية التي أباح الله الانتفاع بها، وترى السفن تشق مياهه حاملة الناس والبضائع.

ووصف اللحم بأنه طري يبرز ما في طعام البحر من منفعة للإنسان، ويشير إلى نعمة الرزق المتجدد الذي يصل إليه من بيئة تختلف عن بيئته البرية. كما يذكر الله الحلية ليبين أن الانتفاع بال مخلوقات لا يقتصر على الطعام وما يسد الحاجات الأساسية، بل يشمل كذلك وجوهاً من الزينة المباحة. ثم ينتقل إلى السفن، وهي وسيلة جعل الله للناس فيها قدرة على قطع المسافات ونقل الأرزاق، حتى أصبح البحر طريقاً للاتصال بين المجتمعات وتبادل المنافع.

وقوله تعالى ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ يفتح باباً مهمّاً في فهم العلاقة بين العبادة والعمل. فطلب الرزق والتجارة والسعي في مصالح الحياة ليس مناقضاً للإيمان، بل قد يكون من العمل المشروع الذي يؤجر عليه الإنسان إذا صحت نيته والتزم حدود الله وأدى الحقوق الواجبة. والقرآن يذكر هذه المنافع في مقام الامتنان، ليدرك الإنسان أن ما يبلغه من رزق بعمله إنما يجري ضمن أسباب خلقها الله ويسرها.

لكن طلب فضل الله لا يعني أن كل ما يحقق الربح مشروع؛ فالوسائل والأغراض تُوزن بميزان الشرع. فلا تباع التجارة الغش، ولا يبيع طلب الرزق أكل أموال الناس بالباطل، ولا يجوز أن يكون الانتفاع بالبحر أو غيره سبباً للإضرار بالناس أو الاعتداء على حقوقهم. فالتوحيد الذي يقرر أن الله هو المنعم يقتضي كذلك الالتزام بأمره في كيفية الانتفاع بالنعمة.

وفي الآية دلالة على أصل جواز الانتفاع بالمنافع البحرية التي أباحها الشرع، وعلى مشروعية السعي في الرزق والتجارة عبر البحر. أما تفاصيل أحكام صيد البحر وأطعمته، وما يتعلق

بالذهب والفضة والحلي ولباسها، فتُبَحِّثُ في ضوء النصوص الأخرى وأقوال الفقهاء؛ فلا ينبغي استنباط أحكام تفصيلية لا يدل عليها هذا الموضع وحده. والمهم هنا أن يظل الاستنباط الفقهي مرتبطاً بحدود الدلالة، وأن يكتمل بجمع الأدلة ذات الصلة.

ثم يختم الله الآية بقوله ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، فيكشف عن الغاية الإيمانية التي ينبغي أن تقود إليها هذه المنافع. فالبحر ليس مجرد مورد اقتصادي، والسفينة ليست مجرد وسيلة للنقل، والطعام والحلية ليسا مجرد متاع؛ بل كل ذلك يذكر العبد بالمنعم، ويستدعي منه شكراً يوافق حقيقة النعمة. والشكر في هذا المقام اعتراف القلب بفضل الله، وحمد اللسان له، واستعمال الجوارح والمال والقدرات في ما أباحه وأمر به.

ومن الشكر كذلك ألا يحصر الإنسان النعمة في نفسه؛ فالتاجر الذي يرزقه الله من البحر يستطيع أن يجعل من عمله مصدراً للنفع، والعامل يستطيع أن يؤدي أمانته، وصاحب المال يستطيع أن يؤدي حقوقه، والمجتمع يستطيع أن ينظم الانتفاع بالموارد بما يمنع الظلم ويحفظ المصالح. وهكذا ينتقل معنى الشكر من علاقة الفرد بربه إلى أثره في حياة الناس.

وبعد البحر وما فيه من منافع، يذكر الله الجبال والأنهار والسبل، فيقول سبحانه: ﴿وَاللَّهُ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ يَقْبَذَ بَكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. والرواسي هي الجبال الثابتة، والميد هو الاضطراب والميل. وتذكر الآية الجبال في سياق ما جعل الله في الأرض من أسباب الاستقرار والانتفاع، ثم تقرن بها الأنهار والسبل التي تقوم عليها مصالح الناس في الماء والتنقل والوصول إلى مقاصدهم.

ولا يلزم من ذكر الجبال هنا أن تُنسب إليها وحدها جميع أسباب استقرار الأرض، أو أن يُحمل التعبير القرآني على تفصيل جيولوجي لم يصرح به. فالواجب تفسير الآية وفق دلالتها وسياقها، مع تجنب جعلها تقريراً لنظرية علمية محددة دون دليل. والمقصود الظاهر هو تذكير الإنسان بما أودع الله في الأرض من معالم ومنافع تقوم بها مصالحه، وتدل على قدرته وحكمته.

ثم يذكر الأنهار والسبل؛ فالماء يجري في الأنهار لتقوم به حياة الناس ومصالحهم، والسبل تتيح لهم الانتقال بين الأماكن. وفي هذا الترتيب تذكير بأن من نعم الله ما يتعلق بأصل الحياة، ومنها ما يتعلق بتنظيمها وتيسير الحركة فيها. فالإنسان يحتاج إلى الماء، ويحتاج كذلك إلى طريق يبلغ به الماء والرزق والناس ومواطن العمل.

وقوله سبحانه ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ يشير إلى الاهتداء إلى المقاصد في الأرض من خلال معالمها وطرقها. ويشمل ذلك الهداية الحسية إلى المسالك والجهات، أما الهداية الشرعية إلى الحق فتأتي أدلتها في مواضع أخرى، وقد اجتمع ذكر الطريق الحسي والطريق المعنوي في سياق السورة الأوسع الذي يقرر أن الله يبين السبيل المستقيم ويحذر من الطرق الجائرة.

وهنا تتجلى قيمة تيسير مصالح الناس في المنظور الإيماني؛ فإقامة الطرق، وحفظ موارد الماء، وتيسير الوصول إلى المنافع، كلها من المصالح التي يحتاج إليها العمران البشري. ولا يعني ذلك أن الآية نص مباشر في كل تفصيل من تفاصيل التخطيط الحضري أو تنظيم المرافق، وإنما يستأنس بها في إدراك أن تيسير سبل الحياة من وجوه النعمة التي ينبغي صيانتها، وأن الإفساد الذي يعطل مصالح الناس أو يحرمهم حقوقهم يناقض ما أمر الله به من العدل والإحسان.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾. والعلامات تشمل المعالم التي يستدل بها الناس على الطرق والجهات، ويذكر النجم بوصفه وسيلة من وسائل الاهتداء في الأسفار، ولا سيما في البيئات التي يقل فيها وجود العلامات العمرانية. فكما جعل الله في الأرض سبلاً، جعل للناس دلائل يهتدون بها إلى مقاصدهم.

وفي الآية إقرار بمنفعة المعرفة القائمة على الملاحظة والاستدلال؛ فالاهتداء بالنجوم في معرفة الجهات من وجوه الانتفاع بالمخلوقات التي خلقها الله. ولا يدخل في ذلك ادعاء أن النجوم تتحكم في مصائر الناس، أو أن مواقعها تكشف الغيب، فهذه دعاوى لا يدل عليها

النص. والفرق عظيم بين الاستدلال بالعلامات على أمر يمكن معرفته بالأسباب، وبين نسبة علم الغيب أو التصرف في الأقدار إلى الأجرام السماوية.

وهذا الفرق يضع حدًا فاصلاً بين المعرفة النافعة والخرافة؛ فالإيمان لا يرفض الاستدلال بالظواهر على ما تدل عليه حقيقة، لكنه يرفض أن تُمنح المخلوقات قدرة غيبية مستقلة لم يجعلها الله لها. ومن هنا كانت معرفة الكون وسيلة للانتفاع والاعتبار، لا باباً لتعليق القلوب بما لا يملك لها نفعا ولا ضرا.

وبعد أن عرض الله هذه الشواهد المتنوعة، من الماء والنبات إلى السماء والبحر والجبال والسبل، يجمعها في سؤال واحد حاسم، فيقول سبحانه: ﴿أَقَمْتُ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

هذا السؤال هو ذروة الحجة في المقطع. فقد تعدد صور النعم، وتنوع الأدلة، لكن النتيجة التي تقود إليها واحدة: أن الخالق ليس كالمخلوق، وأن من أوجد هذه المنافع ودبر أسبابها ليس كمن لا يملك خلق شيء منها. وإذا كان المشركون يقولون بأن الله خالق السماوات والأرض، ثم يصرفون شيئاً من العبادة لغيره، فإن القرآن يكشف التناقض في موقفهم؛ إذ لا يستقيم الإقرار بأن الله هو الخالق المدبر مع جعل العبادة لغيره ممن لا يخلق ولا يستقل بتدبير شيء.

والاستفهام هنا إنكاري توبيخي، يراد به إيقاظ العقول التي غفلت عن مقتضى ما تشاهده. فالإنسان لا يحتاج إلى أن يعرف كل تفصيل في أسرار الكون حتى يدرك الفرق بين الخالق والمخلوق، بل تكفيه الأصول التي أقام الله عليها الحجة: وجود الخلق، وافتقاره إلى خالقه، وظهور آثار القدرة والتدبير فيه. ثم يأتي الوحي ليبين للإنسان ما يلزمه من العبادة والطاعة، وما لا يستقل العقل بمعرفة تفاصيله.

ومن هنا ينبغي التفريق بين الإقرار بوجود الله والإفراد له بالعبادة. فقد يعرف المرء أن الله هو الخالق، ثم لا يؤدي حق هذه المعرفة؛ فيدعو غير الله دعاء عبادة، أو يصرف لغيره ما

يختص به سبحانه، أو يجعل هواه ورضا الناس مقدمين على أمره. فالمطلوب ليس مجرد الاعتراف بوجود الخالق، بل أن ينفاد القلب والعمل لمقتضى هذا الاعتراف. والتوحيد الذي تقيم السورة حجته هو توحيد يحرر العبادة من الشرك، ويوجه حياة الإنسان إلى طاعة الله.

وهذه الحجة تتصل كذلك بتصحيح مصادر القوة في حياة الناس. فالمال والجاه والسلطة والقدرات البشرية كلها مخلوقات محدودة، قد ينتفع الناس بها في حدود ما أذن الله، لكنها لا تستحق عبادة ولا طاعة مطلقة. ولا يجوز أن يتحول صاحب سلطة إلى معبود من دون الله، أو أن يصبح رضا البشر معياراً أعلى من الحق، أو أن تُمنح أسباب الرزق منزلة تجعل الإنسان يرتكب الحرام خوفاً من فقدها. فكل ما سوى الله محتاج إليه، ولا يصح أن يُجعل غاية مطلقة للقلب أو معياراً مستقلاً للحق والباطل.

ثم يذكر الله سبحانه حقيقة تعيد الإنسان إلى حدود قدرته، فيقول: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. فبعد أن تعددت صور النعم في الآيات السابقة، يقرر الله أن ما ذكر منها ليس إلا جاثياً من نعم لا يحيط الإنسان بإحصائها. ولفظ ﴿نِعْمَةُ اللَّهِ﴾ يحمل جنس النعمة وما يندرج تحته من أفراد لا تحصى؛ فحياة الإنسان، وصحته، وعقله، وأسباب رزقه، وما في الكون من منافع، كلها داخلية في هذا الباب الواسع.

وليس المقصود مجرد العجز الحسائي عن تعداد النعم، بل كذلك عجز الإنسان عن الإحاطة بجميع وجوها وآثارها. فقد يعرف نعمة الطعام، لكنه لا يحيط بجميع الأسباب التي تهيئ وصوله إليه؛ وقد يدرك منفعة الماء، لكنه لا يستحضر كل ما يتوقف عليه وجوده وانتشاعه به؛ وقد يتبين له أثر الصحة حين يفقدها، ولا يحيط قبل ذلك بكل ما تتيحه له من إمكانات. وهكذا يعيش الإنسان في نعم كثيرة قد لا يشعر بقيمتها إلا حين تتغير أو تزول.

ولهذا فإن استحضار النعم لا ينبغي أن يتحول إلى تمرين ذهني عابر، بل إلى خلق دائم من الشكر والتواضع. فكلما عرف الإنسان مقدار افتقاره إلى فضل الله، قلَّ اغتراره بما يملك،

وخُفَّ استعلاؤه على من حُرِمَ بعض ما أُعطي، وازداد حرصه على استعمال نعمته في الخير. ولا يعني ذلك أن كل من ابتلي بنقص في المال أو الصحة قد حُرِمَ رحمة الله؛ فالابتلاء له أحكامه وحكمه، وقد يكون في البلاء من الأجر والرفعة ما لا يعلمه الإنسان، كما أن وفرة النعمة قد تكون اختباراً في الشكر وأداء الحقوق.

وبلغت النظر أن الله سبحانه ختم الآية بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. فبعد ذكر عجز الإنسان عن إحصاء النعم، يأتي ذكر المغفرة والرحمة، بما يفتح باب الرجاء لمن قصر في شكر الله. فالعبد مهما اجتهد لا يستطيع أن يؤدي حق كل نعمة أداء يوازي فضل المنعم، وهو مع ذلك مأمور بالشكر بحسب استطاعته، لا باليأس من التقصير. والله سبحانه يغفر لعباده ويرحمهم إذا تابوا وأنبأوا وأحسنوا العمل.

وهذه الخاتمة توازن بين شعورين ينبغي أن يجتمعا في قلب المؤمن: الشعور بعظمة النعمة الذي يمنعه من الغفلة، والشعور بسعة رحمة الله الذي يمنعه من القنوط. فلا يتذرع العبد بأن النعم لا تُحصى ليترك الشكر، ولا يظن أن تقصيره في شكرها يمنعه من التوبة والإصلاح. بل يعترف بالفضل، ويجتهد في الطاعة، ويستغفر من التقصير، ويرجو رحمة ربه.

ثم يأتي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، لينقل الحديث من النعم الظاهرة إلى حقيقة الإنسان الباطنة. فالله الذي خلق هذه النعم ودبر أسبابها يعلم كذلك ما يضمرة الناس في قلوبهم وما يظهرونه بألسنتهم وأعمالهم. وليس المقصود أن مجرد معرفة النعمة تستلزم بالضرورة الشكر، بل إن الإنسان قد يعرف فضل الله ثم يحجده، وقد يظهر الإقرار بلسانه ويخالفه في باطنه، وقد يستعمل النعمة في الطاعة أو يجعلها وسيلة إلى المعصية.

وهنا تتصل النعمة بالمسؤولية؛ فالله يعلم كيف يستقبل العبد فضله، ويعلم ما يحمله القلب من إخلاص أو رياء، وما يصاحب العمل من قصد صالح أو فساد في النية. وهذه الحقيقة تربي المؤمن على مراقبة الله، لا بمعنى أن يترك محاسبة ظواهر الأعمال، بل بمعنى أن يجمع

بين إصلاح الظاهر والباطن. فقد يقدر الإنسان على إخفاء بعض أفعاله عن الناس، لكنه لا يخرج بذلك عن علم الله، ولا تنقلب المعصية طاعة لمجرد أنها لم تُكشف.

ومن مقتضى هذا العلم الإلهي أن يحذر الإنسان من الازدواجية بين ما يظهره وما يبطنه، وأن يجعل شكره لله صادقًا في القلب والسلوك. فلا يكتفي بذكر النعمة في المجالس ثم يستعملها في الظلم، ولا يتظاهر بالتقوى حين يراه الناس ثم يتجاوز حدود الله في الخفاء. وفي المقابل، لا ينبغي أن يقوده استحضار علم الله إلى اليأس أو الوسواس، بل إلى التوبة والصدق وإصلاح العمل؛ فالعلم الإلهي الذي يكشف حقيقة العبد هو كذلك أساس العدل في الحساب، وأساس رجائه في رحمة الله إذا أناب.

وبعد تقرير علم الله بما يسره الناس وما يعلنون، يعود السياق إلى إبطال الشرك، فيقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾. فالآيات السابقة عرضت دلائل الخلق والرزق والتدبير، ثم جاءت هذه الآية لتقابل بين الخالق الحق وبين ما يدعى من دونه. فالمعبودات التي يتوجه إليها المشركون لا تخلق شيئًا، بل هي نفسها مخلوقة، داخلية في سلطان الله وحكمه.

والتعبير بقوله ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ يقلب التصور الذي يقوم عليه الشرك؛ فبدل أن تكون هذه المعبودات مصدرًا للوجود أو مالكة لأسباب الحياة، يظهر أنها جزء من الوجود المخلوق الذي لا يستغني عن خالقه. ولا يلزم من عموم الآية أن جميع ما يدعى من دون الله له طبيعة واحدة؛ فقد تتخذ بعض الأمم أصنامًا جامدة، وقد يتعلق آخرون بمخلوقات حية أو بأشخاص غائبين أو بأوهام لا حقيقة لها. لكن الجامع بينها في مقام الحجة أنها لا تستحق العبادة، ولا تملك خصائص الألوهية.

وينبغي هنا التفريق بين دعاء العبادة الذي يُصرف لغير الله، وبين سؤال المخلوق الحي الحاضر ما يقدر عليه عادةً، فهذا من التعامل المباح في أصله، وكذلك الاستعانة بالأسباب المشروعة. أما صرف العبادة لغير الله، أو اعتقاد أن مخلوقًا يملك من خصائص التصرف

الغيبى ما لا يملكه إلا الله، فذلك يناقض التوحيد. وهذا التفريق يمنع التوسع غير المنضبط في إطلاق الأحكام على الناس، ويجعل تقرير العقيدة قائماً على الدليل وفهم المراد من الأفعال والأقوال.

ومن آثار هذه الآية في حياة المؤمن أن يتحرر من التعلق القلبي الذي يناقض التوحيد، فلا يمنح المخلوق طاعة مطلقة، ولا يظن أن أحداً يملك له استقلالاً ما لا يملكه إلا الله. لكنه في الوقت نفسه لا يظلم الناس، ولا ينكر فضل من أحسن إليه، ولا يترك الأسباب المشروعة؛ بل يعطي كل ذي حق حقه، ويجعل العبادة لله وحده، مع اعترافه بما للمخلوقات من حقوق ومنافع في الحدود التي شرعها الله.

ثم يؤكد الله هذا المعنى بقوله: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾. والمراد في سياق الاحتجاج وصف ما يُعبد من دون الله بالعجز عن الإحساس والتصرف المستقل، مع اختلاف أحوال المعبودات التي يتناولها السياق. وقد فسّر المفسرون قوله ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ بما يتصل بكون تلك المعبودات لا حياة لها، أو بأنها لا تملك ما يملكه الأحياء من القدرة على الفعل والإدراك، بحسب ما يُراد من المعبودات في المقام. والمقصود الذي يجمع هذه المعاني أن ما لا يملك لنفسه حياة مستقلة ولا قدرة على التصرف لا يستحق أن يُدعى من دون الله. (الطبري، جامع البيان؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الآيتين ٢٠-٢١).

أما قوله ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ فيؤكد عجز هذه المعبودات عن معرفة وقت البعث الذي استأثر الله بعلمه. والبعث هنا يرد في سياق المقارنة بين الخالق والمخلوق، وفي سياق إبطال تعلق المشركين بما لا يملك لنفسه علماً ولا قدرة. فإذا كانت تلك المعبودات عاجزة عن الإحاطة بأمر من أمور الغيب التي لا يعلمها إلا الله، فكيف تُجعل ندّاً للخالق أو تُرجى منها خصائص لا يملكها إلا سبحانه؟

وهكذا يجتم المقطع بقطع الطريق على الشرك من أصله: فالخلق لله، والتدبير له، والنعمة من فضله، والعلم المحيط له، والبعث داخل في حكمه. أما المخلوقات التي تُدعى من دونه فهي مخلوقة عاجزة، لا تملك أن تمنح نفسها خصائص الألوهية، فضلاً عن أن تستحق العبادة.

ومن ثم فإن التوحيد الذي تدعو إليه الآيات ليس إنكاراً للمخلوقات أو للمنافع التي جعلها الله فيها، بل وضع لكل شيء منزلته الصحيحة: فالكون آية، والنعمة أمانة، والعقل وسيلة للتفكير، والعمل طريق لاكتساب الرزق، والمخلوقات أسباب ينتفع بها الإنسان، أما العبادة والتوكل التعبدى المطلق والاستعانة الغيبية فيما لا يقدر عليه إلا الله، فحق لله وحده. وبذلك يتحرر القلب من الخضوع لما لا يستحق العبادة، ويستقيم عمل الإنسان على الشكر والطاعة والعدل.

الوظيفة البنائية للمقطع في السورة

تتكامل هذه الآيات مع المقطع الأول تكاملاً واضحاً؛ فقد قرر الله سبحانه في مطلع السورة أن الوحي يدعو إلى التوحيد والتقوى، وذكر خلق السماوات والأرض والإنسان والأنعام، ثم جاءت هذه الآيات لتوسع دائرة الاستدلال، فتعرض الماء والنبات والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والبحر والجبال والأنهار والسبل، وتبين ما في هذه المخلوقات من وجوه الانتفاع والدلالة.

لكن المقطع لا ينتهي بمجرد تعداد النعم؛ إذ ينتقل من عرضها إلى تقرير النتيجة العقيدية التي ينبغي أن تقود إليها، فيقول الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾، ثم يكشف عجز المعبودات من دونه بقوله: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾. وهكذا تنتظم الآيات في حجة واحدة: من تفرد بالخلق والإنعام والتدبير، فهو وحده المستحق للعبادة والشكر، ولا يستقيم أن يجعل المخلوق العاجز نداً للخالق المنعم.

كما يضيف المقطع بُعدًا تربويًا إلى الحجة العقديّة؛ فهو لا يكتفي بإثبات أن الله هو الخالق، بل يربي الإنسان على التفكير في النعم، وتعقل دلالاتها، وتذكر المنعم، وشكره، ومراقبة الله في السر والعلن. وبذلك تنتقل المعرفة من إدراك الحقائق إلى تغيير موقف الإنسان منها، ومن رؤية النعمة إلى تحمل مسؤوليتها.

ومن أبرز ما يستفيد منه المؤمن من هذا المقطع أن يجعل التفكير في الكون بابًا لزيادة الإيمان، وأن يجمع بين السعي في مصالح الحياة وشكر الله، وأن يميز بين الانتفاع المشروع بال مخلوقات وبين التعلق التعبدي بها، وأن يدرك أن النعم لا تُقاس بكثرتها وحدها، بل بما تثمره من معرفة بالله وطاعة له وإحسان إلى خلقه.

وإذا كان هذا المقطع قد أقام الحجة من خلال آيات الخلق والنعم، فإن المقطع التالي يوسع المواجهة مع الشرك وأهله، فيبين مواقف المكذّبين من الحق، وما يتصل بها من شبهات ومواقف وعواقب؛ لتنتقل السورة من تأسيس البليل إلى كشف المواقف التي تتخذها النفوس لإزائه.

المقطع الثالث: مواجهة الشرك وشبهات المشركين وسنة الله في المكذبين

تفسير سورة النحل: الآيات ٢٢-٥٦

قال الله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ إِلَى اللَّهِ وَاحِدٌ فَأَلَذِّنْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (٢٢) لَا جَزَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رُبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِمَّنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَحَرَّ عَلَيْهِمُ الشَّقَقُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْرِجُهُمْ وَيَقُولُ بَيْنَ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخُزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَخْرُجًا الْمُنْكَرِينَ (٢٩) وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَخَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٤) وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسَبِّحُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) إِنْ تَحَرَّضَ عَلَى هَذَا اللَّهُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يَضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٧) وَأَفْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَذَابٌ عَلَيْهِمْ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ

وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبْوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتَّحُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخْفَوْنَ رَبَّهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا لِلْإِنْسَانِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَازَهُبُونَ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا يَكُمُ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَسَفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فِرَقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ [النحل: ٢٢-٥٦].

التفسير

بعد أن أقام الله سبحانه وتعالى في المقطع السابق الحجة على وحدانيته من خلال آيات الخلق والنعم، وبين أن من خلق ورزق ودبر لا يستوي مع ما لا يخلق شيئاً، ينتقل البيان إلى كشف المواقف التي يتخذها الناس إزاء هذه الحجة. فليست المشكلة دائماً في غياب الدليل؛ فقد تتضح دلائل الحق، ثم تعرض عنها النفس استكباراً، أو تدفعها المصالح والعادات إلى المكابرة، أو تتخذ من الشبهات ستاراً يحجب عنها مقتضى الإيمان. ولهذا يجمع هذا المقطع بين تشخيص أصل الانحراف، وبيان عاقبة المكذبين، وتفنيد حججه، وإظهار سنة الله في الرسل والأمم، ثم يعيد القلوب إلى حقيقة التوحيد التي قامت عليها السورة.

يقول الله تعالى: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ قَالَتِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾. يقرر الله سبحانه النتيجة التي تقود إليها الأدلة السابقة: أن المعبود بحق واحد، لا شريك له في ألوهيته، ولا يستحق أحد سواه أن تُصرف له العبادة. وهذه الحقيقة ليست مجرد قضية نظرية منفصلة عن حياة الإنسان، بل هي الأصل الذي تنتظم به نظرتة إلى الوجود، وموقفه من النعمة، ومعرفته بغاية حياته ومصيره.

ثم يربط الله بين الإعراض عن الإيمان بالآخرة وبين إنكار القلوب والاستكبار. فالذي يحصر أفقه في الحياة الدنيا قد يزن الحق بميزان المنفعة العاجلة، ويستقل ما يقتضيه الإيمان من مسؤولية ومحاسبة، ويقاوم كل دعوة تلزمه بمراجعة نفسه أو التخلي عن امتياز اعتاده. ولا يعني ذلك أن كل من أخطأ في مسألة أو فُضِر في عمل قد استكبر عن الحق؛ فالأحكام على الأشخاص لها شروطها وموانعها، وإنما تصف الآلية حال الذين يعرضون عن الإيمان ويقابلون الحق بالإنكار والاستعلاء.

والاستكبار هنا ليس مجرد شعور داخلي بالعظمة، بل يظهر أثره حين يرفض الإنسان الحق لأنه لا يوافق هواه، أو يأنف من قبوله ممن يظنهم أقل منه منزلة، أو يصير على الباطل بعد قيام الحجة عليه. وقد يكون الاستكبار متعلقاً بمكانة اجتماعية، أو بمصلحة اقتصادية، أو بسلطة يخشى صاحبها أن تتأثر إذا خضع للحق. ولهذا يحتاج طالب الهداية إلى أن يسأل نفسه: هل أبحث عن الحق لأتبعه، أم أبحث عما يؤيد ما ألفتته وأريده؟

ويؤكد الله هذا المعنى بقوله: ﴿لَا جَزْمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُغْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾. فهما أحسن الإنسان عرض موقفه أمام الناس، فإن الله يعلم ما يخفيه من المقاصد والاعتقادات، ويعلم حقيقة موقفه من الحق. وعبارة ﴿لَا جَزْمَ﴾ تفيد التحقيق والتأكيد؛ أي حقاً إن الله يعلم سرهم وعلمهم، ولا يخفى عليه شيء من أحوالهم.

وفي هذا تهديد للمكذابين، وترية للمؤمنين في الوقت نفسه. فالمؤمن لا يجعل سلامة صورته أمام الناس غايته، بل يحرص على صدق باطنه وظاهره، ويعلم أن قيمة العمل لا تنفصل

عن قصده، وأن إخفاء المعصية لا يجعلها مباحة، كما أن إخفاء الطاعة لا ينقص أجرها إذا صحت النية. ويكفي أن يستحضر العبد أن الله يعلم حقيقته ليحمّله ذلك على التواضع للحق، والإنصاف في الخصومة، والرجوع عن الخطأ إذا تبين له.

ثم يكشف الله مظهرًا من مظاهر المكابرة، فيقول: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ فِيكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾. فبدل أن ينظر هؤلاء في مضمون الوحي، وما يقيمه من حجج على التوحيد والبعث، وما يشتمل عليه من هداية وإصلاح، يصفونه بأنه حكايات الأولين وأخبارهم التي لا تقوم بها حجة. ولفظ «أساطير» يراد به في هذا السياق ما يزعمونه من الأخبار المسطورة التي لا حقيقة للوحي وراءها، وهو اتهام يراد به صرف الناس عن سماع القرآن والتفكير فيه.

وتكشف هذه الإجابة عن طريقة متكررة في مقاومة الحق: الانتقال من مناقشة الدليل إلى تشويه مصدره، ومن النظر في المعنى إلى إطلاق وصف ينقّر الناس منه. وقد يتخذ هذا المسلك صورًا مختلفة في الأزمنة المتعاقبة؛ فقد يُرفض قول لمجرد أن قائله غير محبوب، أو يتهم الدليل قبل فحصه، أو يُصرف الناس عن مناقشة الحجة بترويج وصف ساخر أو حكم مسبق. وليس كل نقد لمصدر أو مضمون دليلًا على المكابرة، لكن النقد المنصف يقتضي فهم القول أولاً، ثم النظر في أدلته، لا الاكتفاء بالأوصاف التي تمنع البحث.

والقرآن في مواجهته لهذه الدعوى لا يكتفي بكشف بطلانها، بل يبين عاقبتها، فيقول سبحانه: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾. والأوزار هي الذنوب والأثقال التي يتحملها الإنسان بسبب أعماله. فهؤلاء لا يكتفون بالإعراض عن الحق لأنفسهم، بل يصدون عنه غيرهم، ويقدمون لهم الباطل في صورة الحق أو يصرفونهم عن سماع الوحي؛ فيتحملون إثم ضلالهم، من غير أن يسقط ذلك مسؤولية من استجاب لهم باختباره.

وهذا المعنى أصل مهم في فهم المسؤولية الفردية والاجتماعية في الإسلام. فكل إنسان مسؤول عن عمله، ولا يحمل أحد ذنب غيره لمجرد صلة أو قرابة أو انتماء، لكن من كان سبباً في إضلال الآخرين تحمل من الإثم بقدر ما تسبب فيه. وقد ثبت في الصحيح أن من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، من غير أن ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، وأن من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، من غير أن ينقص ذلك من آثامهم شيئاً. وهذا يوضح أن أثر الكلمة والموقف قد يتجاوز صاحبه إلى أجيال أو جماعات تتبعه.

ومن هنا تبرز مسؤولية العلماء والدعاة والمعلمين وأصحاب التأثير؛ فالكلمة ليست أمراً هيئاً حين تضلل الناس أو تصرفهم عن الحق. كما أن نقل المعلومة دون تثبت، أو إطلاق الأحكام بغير علم، أو تزيف الأدلة لخدمة مصلحة، كلها أمور ينبغي الحذر منها بحسب ما يترتب عليها من ضرر. ومع ذلك، لا يصح أن ينسب إلى الآية حكم تفصيلي على كل خطأ إعلامي أو علمي دون النظر في القصد والعلم والأثر؛ وإنما تقرر الآية أصلاً واضحاً، هو أن الإضلال المتعمد أو القائم على الباطل مسؤولية يحاسب الله عليها.

ثم يستحضر الله مصير المكذبين من الأمم السابقة، فيقول: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنَّ اللَّهَ بُلَيَّانُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾. يقرر الله أن المكر بالحق وأهله ليس أمراً جديداً في تاريخ البشرية؛ فقد سبق إلى ذلك أقوام ظنوا أن ما يملكونه من قوة وتدير يحميهم من عاقبة أعمالهم. فجاءهم من أمر الله ما أبطل مكرهم، وصار البناء الذي اعتمدوا عليه صورة لانهيار ما أقاموه من أسباب الأمن الزائف.

والتعبير بانهيار البناء من قواعده يرسم مشهداً قوياً لانكشاف حقيقة القوة التي يتكئ عليها أهل الباطل. فالبناء قد يبدو متماسكاً من ظاهره، بينما يكون الخلل في أساسه، فإذا أصابته أسباب الانهيار سقط ما فوقه. وكذلك المكر الذي يقوم على الظلم والكذب وإفساد

الحقائق قد ينجح في بعض المراحل، لكنه لا يملك أن يحول الباطل إلى حق، ولا أن يمنح صاحبه حصانة من حساب الله.

ولا يلزم من الآية تعيين حادثة تاريخية بعينها أو الجزم بهوية أصحاب هذا البناء دون دليل صحيح. فالمقصود الظاهر هو تقرير سنة الله في الذين يمكرون بالحق، وتصوير انهدام تدبيرهم حين يأتيهم العذاب من حيث لا يتوقعون. وتؤكد الآية أن تأخر العقوبة لا يعني الرضا عن العمل، وأن تمكن الظالم في مرحلة من الزمن لا يثبت له سلامة العاقبة.

ثم يبين الله أن الخزي لا ينتهي بانهاء الدنيا، فيقول: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. ومعنى ﴿تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ﴾ أنكم تخالفون الحق وتنازعون في شأن هذه المعبودات التي جعلتموها شركاء لله، وتوالونها وتدافعون عنها مع قيام الحجة على بطلان عبادتها.

والسؤال الإلهي ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ ليس طلباً لعلم مجهول، تعالى الله عن ذلك، وإنما هو سؤال توبيخ وتقريع، يظهر به عجز المعبودات وبطلان ما نسبته المشركون إليها. ففي الدنيا كانوا يدافعون عنها، ويخاصمون من دعاهم إلى التوحيد، ويزعمون أنها تقرهم إلى الله أو تنفعهم، فإذا جاء يوم القيامة انكشف عجزها، ولم تجد لهم نصيراً.

ويأتي جواب الذين أوتوا العلم ليقرر حقيقة العاقبة: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. وقد ذكر المفسرون في المراد بالذين أوتوا العلم هنا أقوالاً، منها أنهم أهل العلم بالله ودينه، وقيل: الأنبياء والمؤمنون الذين عرفوا الحق. والمعنى العام أن أهل العلم بالحق يشهدون بانكشاف الباطل ووقوع الخزي على من كفر به، وهو ما يتناسب مع سياق المفاضلة بين أهل التكذيب وأهل التقوى. (الطبري، جامع البيان؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الآية ٢٧).

وفي هذا تذكير بأن العلم النافع ليس كثرة المعلومات وحدها، بل معرفة الحق التي تهدي إلى الإيمان وتكشف زيف الشرك. وقد يكون الإنسان واسع المعرفة في شؤون الدنيا، ثم

يضل في باب الاعتقاد إذا استكبر عن الوحي أو اتبع الهوى. أما العلم الذي يورث صاحبه الخشية والإصاف، فيعينه على معرفة الحق والثبات عليه، وعلى إدراك أن العقابة ليست لمن يعلو صوته في الدنيا، بل لمن أقام موقفه على الهدى.

ثم يصور الله لحظة انكشاف الحقيقة عند الموت، فيقول: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. والمراد بإلقاء السلم هنا الاستسلام والاعتقاد عند معاينة ما لم يعد ينفع معه الإنكار، ويظهر من قولهم ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ أنهم يحاولون دفع التبعة عن أنفسهم حين تنكشف لهم الحقيقة. لكن الله سبحانه يقرر أن علمه محيط بأعمالهم، فلا ينفعهم إنكار ما ثبت عليهم.

وهذه الصورة تكشف عن طبيعة النفس حين تقدم على المعصية في حال الغفلة، ثم تواجه عاقبتها حين يفوت وقت الاختيار. فقد يبرر الإنسان لنفسه أفعاله، ويجتهد في إخفائها عن الناس، وربما يقنع نفسه بأن ما يفعله لا يضر أحداً، لكن انكشاف الحقيقة عند الموت يضع حداً لكل تبرير لا يقوم على الحق. ومن هنا تأتي أهمية التوبة قبل حضور الأجل، حين يملك الإنسان أن يرجع عن خطئه ويصلح ما أفسده.

ولا يعني ذلك أن كل من وقع في ذنب ثم أنكره يكون داخلاً في الوعيد الوارد في الآية؛ فالسياق يتحدث عن الذين ماتوا على الكفر والظلم، والآية في مقام بيان مصيرهم. وينبغي أن يبقى الوعيد في موضعه، فلا يتوسع في تنزيله على الأفراد بغير علم، ولا يُتخذ ذريعة إلى اتهام الناس في سرائرهم. فالله وحده يعلم حقيقة ما تخفي الصدور، والواجب على الناس أن يحكموا بالظاهر وفق الأدلة والضوابط الشرعية.

ثم يأتي الحكم الذي لا مرد له: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾. فالاستكبار الذي ظهر في الدنيا برفض الحق والتعالي عليه ينتهي إلى خزي الآخرة. وفي وصفهم بالمتكبرين ربط بين أصل الانحراف ومآله؛ إذ لم تكن المشكلة مجرد خطأ فكري عابر، بل موقفاً استقر على رد الحق والإعراض عنه.

ويحذر هذا المشهد من التسويف في التوبة، ومن الاعتزاز بما يملكه الإنسان في الدنيا من مكانة أو مال أو قوة. فكل ذلك ينتهي، ويبقى العمل الذي قدمه العبد، ويبقى حكم الله العادل. وليس المقصود أن يعيش المؤمن في خوف يقطع رجاءه، بل أن يجمع بين الخوف الذي يمنعه من الغرور، والرجاء الذي يدفعه إلى التوبة والعمل الصالح.

وبعد عرض عاقبة المكذبين، يفتح الله مشهداً مقابلاً يبين عاقبة المتقين، فيقول سبحانه: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾. فالسؤال الذي وجه إلى المكذبين في أول المقطع يتكرر هنا، لكن الجواب يختلف اختلافاً يكشف اختلاف الموقف من الوحي. فهؤلاء لم يصفوا ما أنزل الله بأنه أساطير، بل أجابوا بأنه خير؛ لأنهم عرفوا هدايته، وصدقوا به، وأحسنوا العمل بمقتضاه.

وفي هذا التقابل يظهر أن الوحي واحد، لكن استقبال الناس له يتفاوت بحسب ما في قلوبهم من إيمان أو استكبار، وبحسب استعدادهم للانقياد للحق. فالمؤمنون لم يكتفوا بإدراك أن القرآن خير، بل ظهر أثر ذلك في إحسانهم في الدنيا. ولهذا جاءت الآية مباشرة بذكر الجزاء: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾؛ أي لهم في الدنيا جزاء حسن من وجوه الخير التي يقدرها الله لهم، ولهم كذلك الثواب والكرامة، ثم تكون دار الآخرة خيراً وأبقى.

ولا يعني هذا أن الإحسان يستلزم خلو حياة المؤمن من الألم أو الفقر أو الابتلاء، فهذه الأمور قد تصيب الأنبياء والصالحين، وإنما الحسنة تشمل الهداية والطمأنينة والبركة والأجر وسائر وجوه الخير، مع ما قد يلقاه المؤمن من امتحان يرفع الله به درجته أو يكفر عنه سيئاته. كما أن وعد الله بالخير لا يبيح للإنسان أن يترك العمل أو ينتظر الجزاء بلا سعي، بل يدعو إلى الإحسان مع حسن الظن بربه.

ثم يبين الله سبحانه بعض نعم دار المتقين، فيقول: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾. وجنات عدن هي جنات إقامة

وخلود، وفي ذكر الأنهار وما فيها من النعيم تقريب لما أعده الله لعباده، على وجه يليق بالدار الآخرة التي تختلف عن الدنيا في حقيقتها وأحوالها. وقوله ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ فِيهَا نَهَارًا مَّا يَسَاءُونَ﴾ يدل على كمال النعيم وسعة العطاء، حيث لا يعترض أهل الجنة ما يعترض أهل الدنيا من العجز والحرمان والأذى.

لكن الآية لا تجعل النعيم غاية منفصلة عن التقوى، بل تختم بقوله ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾، فترتبط الجزاء بوصف أهله. والتقوى ليست ادعاء أو مظهرًا اجتماعيًا، بل امتثال لأمر الله واجتناب لنهيه، مع صدق الإيمان وإصلاح العمل بحسب الاستطاعة. وقد تجمع التقوى مع الضعف البشري والتقصير الذي يتوب منه صاحبه، لكنها لا تجمع مع الإصرار على جعل الهوى حاكمًا على الوحي.

ثم يصف الله حال المتقين عند الوفاة، فيقول: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. والمراد بكونهم طيبين أنهم طيبون بالإيمان والعمل الصالح، وما يتصل بذلك من سلامة الاعتقاد وحسن الطاعة. وتبشرهم الملائكة بالسلام والأمن، في مقابل المشهد السابق الذي يظهر فيه استسلام المكذبين بعد إنكارهم.

والتباين بين المشهدين مقصود في البناء؛ فهناك أناس يواجمون الملائكة بالإنكار ومحاوله دفع التبعة، وهنا أناس تتلقاهم الملائكة بالبشارة والسلام. وليس الفارق في مجرد ما يقوله الإنسان عند الموت، بل في حقيقة الطريق الذي سلكه طوال حياته. فخاتمة المرء مرتبطة بما عاش عليه من إيمان وعمل، وإن كان الحكم النهائي لله وحده، وهو الذي يعلم حقائق النفوس وأعمالها.

أما قوله ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيثبت أن العمل الصالح سبب للجزاء، من غير أن يعني أن العبد يستحق الجنة استقلالاً عن فضل الله ورحمته. فقد ثبت في السنة أن دخول الجنة يكون برحمة الله وفضله، وأن الأعمال أسباب شرعية للجزاء وليست ثمنًا مستقلاً يوجب

على الله شيئاً. وبذلك يجتمع معنى الآية مع سائر النصوص: يعمل المؤمن ويجتهد، ويرجو رحمة الله، ولا يعتر بعمله ولا يقنط من تقصيره.

وبعد المقابلة بين مصير الفريقين، يعود الله إلى إنذار المكذبين الذين لا يزالون يعرضون عن الحق، فيقول سبحانه: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. فالاستفهام إنكاري، يبين أن هؤلاء لا ينتظرون دليلاً جديداً بقدر ما يؤخرون الاستجابة حتى يأتيهم ما لا ينفع معه الإيمان الاضطراري. والمراد بمجيء أمر الله هنا ما ينزل بهم من قضائه وعذابه، على ما يقتضيه السياق.

وتعيد الآية تقرير سنة الله في المكذبين: فقد سبقهم أقوام أعرضوا عن رسالهم، ثم نزل بهم ما أُنذروهم به الرسل. ولم يكن ذلك ظلماً من الله، وإنما كان جزاءً على ما قدموه من تكذيب وعناد. فالله سبحانه لا يعاقب أحداً بغير حق، ولا يحمل أحداً ذنب غيره، وإنما يحاسب العباد على ما كسبوا وفق عدله وحكمته.

وفي هذا تحذير من الغفلة التي تجعل الإنسان يؤجل التوبة أو مراجعة الموقف حتى تضيق عليه فرص الاختيار. فقد يظن أن بقاء النعمة دليل على سلامة الطريق، أو أن تأخر العقوبة يعني أن ما يفعله لا تبعه له، لكن الآية تبطل هذا الوهم. فالإهمال ليس إقراراً بالباطل، وقد يكون فرصة للتوبة، فإذا أصر الإنسان على التكذيب حتى أدركه الموت أو العذاب لم يعد الندم كافياً لتغيير ما استقر عليه اختياره.

ثم يبين الله نتيجة أعمالهم بقوله: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَبَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَخَاقٍ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾. أي نزلت بهم عواقب أعمالهم السيئة، وأحاط بهم ما كانوا يستهزئون به من العويد. والتعبير بـ﴿خَاقٍ بِهِمْ﴾ يدل على إحاطة العقوبة بهم ونزولها عليهم، بعد أن كانوا يظنونها بعيدة أو غير واقعة.

والاستهزاء بالحق أشد خطراً من مجرد الجهل به؛ لأن الجاهل قد يتعلم ويرجع، أما الذي يجعل الحق موضع سخرية فقد يسد على نفسه أبواب الانتفاع به، ويصد غيره عنه. ومع ذلك يبقى باب التوبة مفتوحاً ما دام الإنسان في زمن الاختيار، فلا يجوز لأحد أن يئأس من هداية شخص أو يحكم على خاتمته، بل الواجب بيان الحق بالحكمة، مع الحذر من السخرية التي تحقر الدين أو تستخف بأوامر الله.

ثم يعرض الله شبهة أخرى من شبهات المشركين، وهي الاحتجاج بالمشيئة الإلهية على الشرك والتحریم بغير إذن الله، فيقول سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.

هذه الحجة تقوم على خلط بين مشيئة الله الكونية وبين أمره الشرعي. فالمشركون يحتجون بأن وقوع الشرك منهم دليل على أن الله شاءه، ثم يجعلون هذه المشيئة عذراً يبرر لهم فعلهم. لكن وقوع الفعل في الكون لا يعني أن الله يحبه أو يأمر به أو يرضاه لعباده؛ فالله سبحانه شاء كوناً ووقوع أفعال من عباده، لحكمة يعلمها، مع أنه نهى عن الكفر والشرك، وأرسل الرسل لبيان الحق وتحذير الناس من الباطل.

والفرق بين الأمرين أصل مهم في فهم العقيدة والمسؤولية. فالمشيئة الكونية تتعلق بما يقع في الوجود، ولا يخرج شيء عن سلطان الله، أما الأمر الشرعي فيبين ما يحبه الله ويرضاه من الإيمان والطاعة، وما ينهى عنه من الكفر والمعصية. ولو كان وقوع الفعل دليلاً على مشروعيته، لما صح أن يرسل الله الرسل، أو يأمر بالعدل، أو ينهى عن الظلم؛ إذ كل ما يقع في الكون، خيراً كان أو شراً، لا يقع خارج مشيئته الكونية، لكن العباد مأمورون باتباع أمره الشرعي.

ولهذا لا يصح أن يقول الإنسان: إذا كنت قد أخطأت، فذلك لأن الله شاء، فلا ألام على فعلي. فهذا الاحتجاج يلغي معنى التكليف والاختيار والمسؤولية، مع أن الإنسان يعلم من

نفسه أنه يختار بين أفعال يقدر عليها، وأنه يفرق بين ما يفعله بإرادته وما يقع عليه بغير اختياره. كما أن علم الله السابق ومشيتته لا يبرران للعبد معصيته، ولا يسقطان عنه واجب التوبة إذا أخطأ.

أما قولهم ﴿نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا﴾ فيكشف عن اعتمادهم على التقليد الموروث، وكأن قدم الممارسة يحولها إلى حق. لكن الموروث لا يقبل لمجرد أنه موروث، بل يُعرض على الوحي والدليل. فكم من عادة تستقر في مجتمع ثم تحتاج إلى تصحيح، وكم من اعتقاد يتناقله الناس دون أن يراجعوا أصله. وليس المقصود رفض كل ما ورثه الناس عن آباءهم، بل التمييز بين ما وافق الحق وما خالفه.

ويذكر الله كذلك قولهم ﴿وَلَا حَزْمُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، فيكشف جانباً آخر من الانحراف، وهو اختراع أحكام في الحلال والحرام بغير إذن الله. فحق التشريع لله سبحانه، ولا يجوز لأحد أن ينسب إلى الدين تحريماً أو تحليلاً بغير دليل. أما الاجتهاد الفقهي المنضبط في فهم النصوص وتنزيل الأحكام على الوقائع، فليس تشريعاً مستقلاً من دون الله، بل هو بذل اللوع في معرفة حكم الله وفق أصول الاستدلال المعتمدة.

وهذا المعنى له أثر عظيم في الحياة الدينية والاجتماعية: إذ ينبغي ألا تُفرض العادات والأهواء على الناس باسم الشرع من غير دليل، كما لا يجوز أن يُلغى حكم شرعي ثابت بحجة أن المجتمع اعتاد خلافه. فالتدين الصحيح يقوم على اتباع الوحي، لا على اختراع المحرمات، ولا على تسوية المحرمات القائمة لأن الناس ألفوها.

ثم يقرر الله أن هذه الحجة ليست جديدة، فيقول: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، أي سلك السابقون الطريق نفسه في الاحتجاج على الباطل والتعلق بالتقليد. ثم يبين وظيفة الرسل بقوله: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾. فالرسل مكلفون بتبليغ رسالة الله وبيان الحق، وليس عليهم أن يحملوا الناس على الإيمان قسراً، أو أن يملكو قلوبهم، أو أن يضمّنوا استجابة كل من يسمع الدعوة.

وهذا لا يعني أن البلاغ مجرد نقل ألفاظ دون توضيح؛ بل وصفه الله بأنه مبين، أي واضح في حجته ودلالته. ومن هنا يجب على الداعية أن يحرص على بيان الحق بالحكمة والرفق، وأن يجيب عن الشبهات بقدر علمه، وأن يتجنب التلبيس والتعصب، ثم يعلم أن الهداية بيد الله، وأن مسؤوليته هي البلاغ والعمل بما يدعو إليه، لا التحكم في قلوب الناس.

ثم يبين الله أصل الرسالة التي بعث بها الأنبياء جميعًا، فيقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾.

تقرر الآية وحدة أصل الدعوة في جميع الأمم: عبادة الله وحده واجتناب الطاغوت. والطاغوت اسم لكل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع في الباطل، بحسب ما يقتضيه المقام. وليس معنى ذلك أن كل طاعة لمخلوق طاغوتية، بل الطاعة تكون مشروعة في المعروف، وتكون محرمة إذا تضمنت مخالفة أمر الله، ولا يجوز أن تُمنح لمخلوق سلطة مطلقة تناقض حق الخالق.

وهكذا يتبين أن رسالة الأنبياء لم تكن مجرد دعوة إلى تحسين السلوك العام، مع بقاء الشرك في الاعتقاد والعبادة، بل بدأت بتصحيح الأصل الذي تقوم عليه حياة الإنسان: لمن يخضع؟ ومن يعبد؟ ومن يتلقى عنه معيار الحق والباطل؟ فإذا استقام هذا الأصل، أمكن بناء الأخلاق والأحكام والعلاقات على أساس العبودية لله والعدل بين خلقه.

وقوله سبحانه ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ﴾ يبين اختلاف مواقف الناس من الرسالات. فالله يهدي من يشاء بفضلته وحكمته، ويخذل من أصر على الضلال واستحقته وفق عدله، ولا يظلم أحدًا. ولا يصح فهم الآية على أنها دعوة إلى الجبر أو نفي مسؤولية الإنسان؛ إذ يأتي السياق نفسه بالأمر بالنظر في عاقبة المكذبين، ويقرر مسؤوليتهم عن اختيارهم وتكذيبهم.

ثم يأمر الله بالسير في الأرض والنظر في مصير المكذبين، فيربط الإيمان بالتأمل في التاريخ. فالتاريخ في المنظور القرآني ليس مجموعة حوادث منفصلة، بل مجال للاعتبار ومعرفة آثار العدل والظلم، والطاعة والعناد، والإصلاح والإفساد. وليس كل سقوط حضاري دليلاً وحده على غضب الله، ولا كل ازدهار دليلاً على رضاه؛ فالحكم على الوقائع يحتاج إلى علم بأسبابها وظروفها، لكن القرآن يقرر أن التكذيب والظلم والإفساد لها عواقب، وأن مصير الإنسان لا ينفصل عن موقفه من الحق.

ثم يوجه الله الخطاب إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾. وفي الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم أمام إصرار المكذبين؛ فهو حريص على هدايتهم، لكن حرصه لا يملك أن يفرض الهداية على من أعرض عن الحق واستحق الخذلان. والهداية هنا هداية التوفيق التي يختص الله بها من يشاء، أما هداية البيان والإرشاد فقد قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم على أكمل وجه.

وهذا يضع للدعوة ميزاناً دقيقاً: بذل صادق للجهد، وحرص على الناس، وصبر على أذاهم، من غير ادعاء القدرة على التحكم في نتائج الدعوة. فلا ييأس الداعية إذا تأخر أثر كلامه، ولا يتهم نفسه في كل مرة لا يستجيب فيها المخاطب، ولا يتخذ عدم الاستجابة ذريعة إلى ترك البيان. وفي الوقت نفسه لا يغتر بجده أو يظن أن نجاحه من صنعه وحده؛ فالهداية فضل من الله، والعبد مأمور ببذل السبب.

ثم ينتقل المقطع إلى شبهة البعث، وهي من القضايا الكبرى التي يتوقف عليها فهم الإنسان لمسؤوليته ومصيره، فيقول سبحانه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَاحِدِينَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

لقد بلغ إنكارهم للبعث أن أقسموا بالله على نفيه، مع أن الإقرار بالبعث لازم لفهم كمال العدل الإلهي؛ فالحياة الدنيا لا تستوفي فيها جميع الحقوق، وقد يموت الظالم دون أن ينال

جزاءه الكامل، وقد يموت المظلوم دون أن يرى إنصافه، وقد يعمل الإنسان أعمالاً خفية لا يعرف الناس حقيقتها. فلو انتهت الحياة بالموت، لما ظهرت في الدنيا وحدها الصورة الكاملة للجزاء الذي يقتضيه العدل الإلهي. ولهذا يقرر القرآن أن البعث حق، وأن الله يعيد الخلق للحساب والجزاء.

ولا يقوم إثبات البعث على مجرد الرغبة في أن يكون هناك حساب، بل على قدرة الله المطلقة، وعلى صدق خبره، وعلى ما يراه الإنسان من أصل الخلق وقدرته على الإيجاد. فالذي خلق الإنسان أول مرة لا يعجز عن إعادته، كما أن تعذر الأمر على الإنسان لا يعني استحالة في حق الله سبحانه. ومن هنا يأتي الرد القاطع: ﴿بَلَىٰ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾: أي إن البعث واقع لا محالة، وقد وعد الله به وعدًا حقًا.

وقوله ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يشير إلى أن الجهل بالبعث ليس مجرد نقص في المعلومات، بل قد يكون ناشئًا عن الغفلة عن قدرة الله، أو الاستبعاد القائم على قياس قدرة الخالق بحدود المخلوق، أو الرغبة في التخلص من تبعات الحساب. ولذلك فإن الإيمان بالآخرة ليس مسألة هامشية في البناء القرآني، بل هو أصل يضبط علاقة الإنسان بالعمل والحق والظلم والجزاء.

ثم يبين الله الحكمة من البعث فيقول: ﴿لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾. ففي يوم القيامة ينكشف الحق فيما اختلف فيه الناس، وتظهر حقيقة الأعمال والنيات، ويعلم المكذبون أن ما أنكروه كان حقًا. وليس المراد أن الله يحتاج إلى أن يعلم شيئًا لم يكن يعلمه، تعالى الله عن ذلك، بل المراد ظهور الحق للخلق ووقوع ما سبق في علم الله وقضائه.

وهذا يربط الإيمان بالآخرة بمسؤولية الإنسان عن مواقفه في الدنيا. فالخلافات لا تنتهي كلها بالاتفاق، والظالم قد يصر على موقفه، والمكابر قد يرفض الدليل، لكن ذلك لا يجعل الحق

تابعًا لما يتفق عليه الناس أو يختلفون فيه. فهناك يوم يفصل الله فيه بين عباده بالحق، ويظهر لكل نفس حقيقة ما عملت، فلا تبقى دعاوى الباطل قادرة على إخفاء الحقيقة.

ثم يقرر الله كمال قدرته بقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. فالخلق لا يعجز الله، ولا يحتاج في إيجاد الأشياء إلى الوسائل التي يحتاج إليها البشر. وإذا أراد سبحانه شيئًا، وقع وفق مشيئته، من غير عجز ولا امتناع. ولفظ ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ يدل على نفاذ أمر الله وكمال قدرته، وليس المقصود تشبيه فعله بأفعال البشر أو جعل إيجاده للأشياء شبيهًا بإنشاء الإنسان للكلام؛ تعالى الله عن ذلك.

وهذه الآية تزيل أصل الاستبعاد الذي يقوم عليه إنكار البعث. فالإنسان يقيس الأمور بحسب ما اعتاده من محدودية قدرته، فيظن أن إعادة الخلق أمر بعيد، لكن هذا القياس لا يصح في حق الخالق الذي أوجد الخلق ابتداءً. فالمؤمن لا يتوقف إيمانه بالبعث على إحاطته بكيفيته، بل يؤمن بصدق خبر الله وكمال قدرته، ويستعمل عقله في إدراك إمكان إعادة، ثم يتلقى تفاصيل الغيب من الوحي.

وإذا كان البعث حقًا، فإن الهجرة والصبر والتضحية في سبيل الله لا تضيع، ولو بدا في الدنيا أن أهل الحق أقل عددًا أو أضعف حيلة. ولهذا ينتقل السياق إلى ذكر الذين هاجروا بعد أن تعرضوا للظلم، فيقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَنُؤِثَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجُزَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

تأتي هذه الآية لتبين أن موقف المؤمن من الظلم ليس الاستسلام المطلق له، وأن الهجرة في سبيل الله قد تكون طريقًا لحفظ الدين والانتقال إلى موضع يستطيع فيه الإنسان أن يعبد الله ويقيم الحق. وقد نزلت الآية في سياق الهجرة بعد الاضطهاد، وذكر المفسرون في أسباب نزولها أقوالًا اتصل بالمهاجرين من مكة، ومنهم من هاجر إلى الحبشة، ثم من هاجر إلى المدينة. ولا ينبغي الجزم بسبب خاص دون تثبت من الروايات، لكن المعنى العام واضح في الشناء على من هاجر لله بعد أن ظلم.

ووعده الله هؤلاء بحسنة في الدنيا، وقد يدخل فيها النصر والتمكين والرزق والعضد الحسن، كما وعدهم بأجر الآخرة الذي هو أكبر وأبقى. وهذا الوعد لا يعني أن كل من هاجر أو ترك وطنه في سبيل الله لا بد أن يحصل على صورة معينة من الراحة الدنيوية، بل إن وعد الله يتحقق وفق حكمته، وقد يكون الخير في التمكين، أو في الثبات على الدين، أو في الأجر الذي يدخره الله لعبده.

وفي الآية كذلك تقرير لكرامة الإنسان المؤمن، وأن الظلم الذي يتعرض له لا يجعل حقه ساقطاً، وأن ترك موضع الفتنة أو الاضطهاد قد يكون مشروعاً إذا كان وسيلة لحفظ الدين والنفس والمصالح المعتمدة. لكن أحكام الهجرة تختلف باختلاف الأحوال والقدرة والواجبات، فلا يصح تعميم حكم واحد على كل زمان ومكان دون النظر في شروطه وأدلته.

ثم يصف الله هؤلاء بقوله: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾. فالهجرة ليست مجرد انتقال من مكان إلى مكان، بل قد تتضمن ترك الأهل والمال والمألوف، واحتمال مشقة الطريق، ومواجهة مستقبل لا يعرف المرء تفاصيله. ولهذا جمع الله بين الصبر والتوكل؛ فالصبر يحفظ المؤمن على الطريق حين تشتد المشقة، والتوكل يربط قلبه بالله وهو يزيل الأسباب.

والتوكل الصحيح لا يناقض الأخذ بالأسباب؛ فقد هاجر النبي صلى الله عليه وسلم، واتخذ من الأسباب ما يحفظ سلامة الرحلة، مع كمال اعتداده على الله. فالمؤمن لا يجعل التوكل ذريعة إلى ترك التخطيط أو إهمال الواجبات، كما لا يجعل الأسباب مصدرًا مستقلاً للأمان. بل يعمل بما يستطيع، ويستعين بالله، ويرضى بحكمه بعد بذل الوسع.

ثم يعود السياق إلى تثبيت أصل الرسالة، فيقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. فهذه الآية ترد على من يستبعد أن يكون الرسول بشراً؛ إذ يبين الله أن الرسل السابقين كانوا رجالاً من البشر يوحى إليهم، وأن بشرية الرسول لا تنفي اصطفاؤه بالوحي ولا صدقه في البلاغ.

وفي قوله ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أصل في الرجوع إلى أهل العلم والخبرة فيما يجمله الإنسان. وقد فسر أهل الذكر في هذا السياق بأهل الكتاب الذين يعرفون أخبار الرسل السابقين، وهو مناسب لمقام الاحتجاج على المشركين بأن الرسائل السابقة جاءت على يد بشر. ويدخل في عموم الاستفادة من الآية أن من جمل مسألة يرجع فيها إلى أهل الاختصاص الموثوقين، لا أن يستقل بالقول فيما لا يحسنه.

وهذا الأصل مهم في الحياة العلمية والدينية؛ فليس كل إنسان مؤهلاً للفصل في كل مسألة، كما أن مجرد الشهرة لا تجعل المرء مرجحاً موثقاً. والواجب التمييز بين العلم والتخمين، وبين الخبر الثابت والدعوى المجردة، وبين السؤال الذي يراد به التعلم والسؤال الذي يراد به التعنت. ويتضمن ذلك أن يكون أهل العلم أمناء في بيان ما يعرفون، وأن يصرحوا بما يجهلون، وآلا ينسبوا إلى الله حكماً بغير علم.

ثم يبين الله أن الرسل السابقين جاءوا بالبينات والذبر، أي بالدلائل الواضحة والكتب التي أنزلها الله على رسله، ويقول سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. فالقرآن ذكر وهداية، وقد أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ليبين للناس ما أنزل إليهم، بما يشمل تلاوته وتفسيره وبيان أحكامه، وما أوحاه الله إلى رسوله من السنة المبيّنة للقرآن.

وفي الآية أصل عظيم في مكانة السنة النبوية؛ إذ جعل الله من وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم بيان ما نزل إلى الناس. فلا يصح أن يفصل القرآن عن البيان النبوي، أو أن يجعل فهم كل قارئ للنص بمنزلة الفهم الذي استند إلى مجموع الوحي ولسان العرب وأصول التفسير. كما لا يصح أن تنسب إلى السنة رواية لا تثبت، بل ينبغي التحقق من صحتها قبل الاحتجاج بها.

ويختم الله الآية بقوله ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فيجمع بين البيان والتفكير؛ فالوحي لا يدعو إلى تعطيل العقل، بل إلى تشغيله في فهم الحق والاعتبار به. غير أن التفكير المنضبط لا يعني

أن يجعل الإنسان هواء حاككاً على الوحي، بل أن ينظر في دلالاته، ويفهم سياقه، ويجمع بين النصوص، ويتأمل ما فيها من هداية وأحكام.

وبهذا يتضح أن الرد على الشبهات لا يكون بالتخمين ولا بمجرد الانفعال، وإنما بالرجوع إلى الوحي الصحيح، وفهمه على أصوله، والاستعانة بأهل العلم، والتفكر فيما يدل عليه. وهذا المنهج يجمع بين قوة الدليل والتواضع للحق، ويمنع من أن يتحول الخلاف إلى خصومة لا غاية لها سوى الانتصار للنفس.

وبعد تثبيت مصدر الوحي ووظيفة الرسول في البيان، يعود الله إلى التحذير من المكر بالحق، فيقول سبحانه: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥١) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٢﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمُ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾.

الاستفهام في قوله ﴿أَفَأَمِنَ﴾ إنكاري، أي لا ينبغي لهؤلاء أن يأمنوا عاقبة مكرهم السيئ. والمكر السيئ هو التدبير الذي يقصد به الإضرار بالحق وأهله أو إفساد أمرهم، ولا يصح أن يساوى به كل تخطيط أو تدبير؛ فالتخطيط في الخير مشروع، وإنما المذموم هو المكر الذي يقوم على العدوان والباطل.

ويذكر الله صوراً من العذاب الذي قد ينزل بالملكدين: الخسف بالأرض، أو مجيء العذاب من حيث لا يتوقعون، أو أخذهم في أثناء تنقلهم وتقلبهم في أعمالهم، أو أخذهم على تخوف. وقد فسر بعض السلف التخوف هنا بالتنقص التدريجي، وقيل: على حال من الخوف والتوقع. والمعنى في جميع الأحوال أن الإنسان لا يملك ضمان سلامته من عاقبة الظلم إذا جاء أمر الله، مما ظن أن أسبابه تحميه.

لكن الآية لا تدعو إلى تفسير كل كارثة تقع في العالم بأنها عقوبة خاصة على ذنب معين؛ فهذا حكم يحتاج إلى وحي، ولا يجوز أن يقطع به الناس في حوادث الأفراد والمجمعات بغير

دليل. وإنما تقرر الآيات أن الله قادر على إنزال العقوبة، وأن المكذبين لا يعجزونه، وأن واجب الإنسان ألا يعجز بالإهمال، بل يتوب ويصلح قبل أن يفوته وقت الاختيار.

وتأتي الجملة الأخيرة ﴿فَلِإِنَّ رَبَّكُمُ لَرَّءَوْفٌ رَّحِيمٌ﴾ لئلا تمنع فهم الوعيد على أنه إشارة إلى أن العذاب يقع بلا حكمة أو أن الله يعاجل عباده دون إهمال. فرأفة الله ورحمته تظهران في إنذارهم، وإرسال الرسل إليهم، وفتح باب التوبة، وعدم مؤاخذتهم بمجرد القدرة عليهم. فالإنذار نفسه رحمة؛ لأنه يبين للإنسان طريق النجاة قبل أن يدركه ما لا يستطيع دفعه.

ومن هنا ينبغي أن يجتمع في قلب المؤمن الخوف والرجاء؛ فلا يأمن مكر الله فيتمادى في المعصية، ولا يئقنط من رحمته إذا وقع في الخطأ. كما أن الدعوة إلى الله تجمع بين التحذير من العاقبة وفتح أبواب الإصلاح، فلا تتحول إلى تخويف مجرد يقطع الناس عن الرجاء، ولا إلى خطاب ميّون من شأن الذنوب حتى يفقد التحذير أثره.

ثم ينقل الله النظر من مكر المكذبين إلى مشهد كوني يقرر خضوع الخلق كله لله، فيقول سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَّبِعُهُ ظِلَّالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ ذَاخِرُونَ﴾. فبعد الحديث عن من يتكبرون عن عبادة الله، يدعوهم سبحانه إلى التأمل في المخلوقات التي تخضع له، حتى إن ظلالها تتقياً عن اليمين والشمال مع تغير مواقع الشمس. والتقوى هو رجوع الظل وتحوله من جهة إلى أخرى، وهو مشهد يراه الإنسان في حياته اليومية إذا تأمل تغير الظلال مع حركة الشمس الظاهرية.

ووصف الظلال بالسجود يدل على خضوعها لله وانقيادها لما أجرى عليها من السنن، على الوجه الذي يليق بالمخلوقات. وليس المراد أن الظلال تسجد كسجود الإنسان من كل وجه، بل إن القرآن يعبر عن خضوع الكون لله بلغة تليق بعظمة هذا الخضوع، مع الإيمان بأن الله أعلم بكيفية سجد مخلوقاته. وما من شيء في هذا الكون يخرج عن سلطانه، سواء أدرك الإنسان وجه خضوعه أم لم يدركه.

ويؤكد الله هذا المعنى بقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُسْتَكْبَرُونَ﴾. فالمخلوقات كلها خاضعة لله، والملائكة الذين اصطفاهم الله لعبادته لا يستكبرون عن طاعته. وإذا كان الكون بما فيه من مخلوقات عظيمة يسير وفق ما قدر الله له، فكيف يستكبر الإنسان، وهو مخلوق محدود، عن عبادة خالقه؟

وهذا تقرير للاستكبار الذي افتتح به المقطع. فقد بدأ الله بقوله ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾، ثم عرض مشاهد الخضوع في الكون، ثم قرر أن الملائكة لا يستكبرون. وكأن الآيات تضع الإنسان أمام مفارقة ظاهرة: مخلوقات لا تتحدى سلطان الله، وملائكة لا يعصون أمره، بينما يصير بعض البشر على رد الحق، مع ما أعطاهم الله من عقل وقدرة على الفهم والاختيار.

ثم يقول سبحانه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾. فالملائكة يخافون ربهم، ويمتثلون أمره، وهذا الخوف ليس خوف يأس أو اضطراب يعطل العمل، بل خوف عبودية بشر الطاعة والافتقار. وفي الآية رد على من يظن أن معرفة الله أو الإيمان به تكفي دون امتثال؛ فالعبودية الصحيحة تجمع بين المعرفة والخشية والعمل.

كما أن وصف الملائكة بالطاعة يبين أن الكرامة الحقيقية ليست في الاستقلال عن أمر الله، بل في كمال العبودية له. فالإنسان قد يظن أن الحرية تعني أن يفعل ما يشاء بلا قيد، لكن الحرية التي يمدحها الشرع ليست تحرراً من الحق، بل تحرر من عبودية الهوى والباطل، وافتقار واعٍ لأمر الله الذي خلق الإنسان ويعلم ما يصلحه.

وبعد عرض خضوع الكون كله، يقرر الله الأمر بالتوحيد تصريحاً، فيقول سبحانه: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِذَا تَوَلَّيْتُمْ فَارْهَبُون﴾. فليس في الكون إلهان مستقلان، ولا شركاء يتقاسمون حق العبادة والتدبير، وإنما الله وحده هو الإله الحق. والتأكيد بلفظ ﴿اثْنَيْنِ﴾ يزيد المعنى وضوحاً، فينبغي أصل تعدد الآلهة، ثم يوجه الأمر مباشرة: ﴿فَإِذَا تَوَلَّيْتُمْ فَارْهَبُون﴾، أي اجعلوا خشيتكم التعبدية مني وحدي.

والرهبة هنا ليست خوفاً مجرداً، بل خوف يبعث على تعظيم الله وطاعته والبعد عن معصيته. فإذا استقر في القلب أن الله وحده هو الإله، لم يعد من المقبول أن يجعل الإنسان مخلوقاً آخر شريكاً له في العبادة، أو أن يطيع أحداً في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله، أو أن يقدم رضا المخلوق على أمر الخالق حين يتعارضان.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾. فكل ما في السماوات والأرض ملك لله وخلق له، وله وحده الدين الدائم الخالص. وقد فسر أهل العلم ﴿وَاصِبًا﴾ بمعنى دائماً، وقيل: لازماً، والمعنيان متقاربان في هذا السياق؛ إذ إن حق الله في العبادة والطاعة ثابت لا ينقطع، ولا يختص بزمان دون زمان.

ويأتي الاستفهام ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ إنكارياً، يرد الناس إلى مقتضى التوحيد. فإذا كان كل شيء ملكاً لله، وكان الدين الحق له وحده، فمن غيره يستحق أن يُخشى خوف عبادة، أو أن يُجعل ملاذاً غيبياً يُدعى لكشف الضر؟ ولا يعني ذلك نفي الخوف الطبيعي من الأخطار، أو الحذر من أذى المخلوق، فهذه أمور فطرية ومشروعة في حدودها، وإنما المنفي أن يُصرف لغير الله ما يختص به سبحانه من العبادة والافتقار الغيبي.

ثم يربط الله التوحيد بالنعمة التي تكرر ذكرها في السورة، فيقول سبحانه: ﴿وَمَا كُنتُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوَزُونَ ﴿٥٢﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

هذه الآيات تكشف تناقضاً في سلوك الإنسان حين ينسى المنعم في الرخاء، ثم لا يجد ملجأ عند الشدة إلا الله. فكل نعمة تصل إلى الإنسان، من أصل الحياة إلى الصحة والرزق والأمن، فمن فضل الله وخلقته وتقديره، وإن وصلت إليه بواسطة أسباب ومخلوقات. وحين يمس الضر، ترتفع دعوته وتضرعته إلى الله، لأنه يدرك في لحظة الاضطراب أن الأسباب التي اعتاد الاعتماد عليها لا تملك الاستقلال بدفع الضر عنه.

لكن فريقًا من الناس يعود إلى الشرك بعد أن يكشف الله عنه الضر، فينسى ما أظهره من افتقار، ويعود إلى ما كان عليه من غفلة أو انحراف. وهذه ليست دعوة إلى الحكم على كل إنسان يتغير حاله بعد الشدة بأنه مشرك؛ فالسياق يصف فريقًا من المشركين الذين يعودون إلى شركهم، ولا يجوز توسيع الحكم إلى الأفراد بغير تحقق من حقيقة قولهم وعملهم.

والهداية هنا أن يكون افتقار الإنسان إلى الله في الرخاء كما يكون في الشدة. فليس من كمال العبودية أن يعرف العبد ربه عند المرض أو الخوف، ثم ينساه عند الصحة والأمن. بل إن دوام الشكر في أيام العافية من علامات صدق الإيمان، كما أن الصبر والرجاء في أوقات البلاء من علامات الثبات. والمؤمن لا يترك الأسباب المشروعة، لكنه يعلم أن الأسباب لا تستقل بالنفع والضرر، وأن قلبه ينبغي أن يبقى متعلقًا بالله.

وفي هذا السياق يتضح الفرق بين التوكل المشروع والتعلق المذموم. فالتوكل هو اعتماد القلب على الله مع الأخذ بالأسباب، أما التعلق الذي يفسد التوحيد فهو أن يعتقد الإنسان أن سببًا ما يملك استقلالًا غيبيًا لا يملكه إلا الله، أو أن يصرف له دعاء العبادة. وقد يطلب الإنسان العلاج من الطبيب، أو المساعدة من شخص قادر عليها، أو يستعين بوسيلة نافعة، وهذا كله لا ينافض التوحيد في أصله، ما دام في حدود الأسباب المشروعة.

ثم يبين الله نتيجة هذا الجحود بقوله: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾. فاللام في ﴿لِيَكْفُرُوا﴾ تتصل بما ذكر من إشراكهم وجحودهم، وتأتي الجملة التالية في مقام الوعيد والتهديد. وليس المعنى أن الله يأمرهم بالكفر أو يرضاهم، بل يبين مآل اختيارهم وإصرارهم على الجحود.

وقوله ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد لمن جعل متاع الدنيا غايته، واستمر في الكفر مع إجماله. فالمتاع مما طال محدود، ولا يمنح صاحبه حصانة من الحساب. ولا يعني ذلك تحريم الانتفاع بطيبات الحياة أو أن التمتع المباح مذموم في ذاته، بل المذموم أن يجعل الإنسان

الدنيا غاية تستغرق قلبه، أو أن يستعمل النعمة في الكفر والظلم، أو أن ينسى الآخرة بسبب ما أوتي من متاع.

وهذا المعنى يتصل بواقع الناس في كل عصر؛ فقد تتحول النعمة إلى سبب للغفلة حين ينسب الإنسان نجاحه إلى نفسه وحدها، ويظن أن ما يملكه دليل على أنه غير محتاج إلى الله. وقد يتحول الرخاء إلى فتنة إذا أضعف الشعور بالمسؤولية، أو حمل صاحبه على الاستعلاء على الضعفاء، أو دفعه إلى إنكار حقوق الله وحقوق الناس. ولهذا لا تُعرف قيمة النعمة بمجرد وفرتها، بل بما ثمره من شكر وعدل وإحسان.

ثم يختم هذا المقطع بقوله سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَشَسَّالٌ عَمَّا كُنْتُمْ تُفْتَرُونَ﴾. والمراد أنهم يجعلون للمعبودات الباطلة نصيبًا من الرزق الذي أنعم الله به عليهم، فيصرفون إليها ما يزعمونه قربانًا أو حقًا، مع أنها لا تملك لنفسها نفقًا ولا ضرًا، ولا دليل لهم على استحقاقها شيئًا من ذلك. وقوله ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ يشير إلى افتقار هذا التصرف إلى العلم والحجة، إذ نسبوا إلى تلك المعبودات استحقاقًا لا يقوم عليه برهان.

وفي هذا توبيخ لمن يتصرف في النعم تصرفًا مبنيًا على الوهم، ثم ينسب ما اخترعه إلى الدين أو يجعله وسيلة للتقرب إلى غير الله. فليس كل ما اعتاده الناس عبادة صحيحة، ولا كل ما جعلوه قربانًا مقبولًا، بل العبادة توقيفية لا تثبت إلا بدليل من الوحي. وما كان من العادات أو صور الإيفاق المباحة فلا يدخل في هذا الوعيد لمجرد كونه عادة، وإنما موضع الإنكار أن يُصرف حق العبادة لغير الله أو يُنسب إلى الشرع ما لم يأذن به.

وقوله تعالى ﴿تَاللَّهِ لَشَسَّالٌ عَمَّا كُنْتُمْ تُفْتَرُونَ﴾ يؤكد مسؤولية الإنسان عن اختلاف الأحكام والادعاءات في الدين. فالافتراء ليس مجرد خطأ في الرأي، بل يكون شديد الخطر حين ينسب المرء إلى الله ما لم يقله، أو يشرع للناس ما لم يأذن به، أو يجعل هواه أصلًا يحكم به على الحلال والحرام. ومن هنا كان الواجب في الفتوى والتعليم أن يتحرى الإنسان الدليل، وأن يميز بين الحكم الشرعي الثابت والاجتهاد المحتمل، وبين ما يعلمه وما لا يعلمه.

وبهذا تنتهي الآيات إلى ربط النعمة بالتوحيد والمسؤولية: فالذي رزق الإنسان هو الذي يستحق شكره وعبادته، ولا يجوز أن تُصرف النعم في طقوس شركية أو أن تُختلق باسم الدين أحكام لا دليل عليها. كما أن الإنسان مسؤول عن طريقة تعامله مع الرزق، وعن معتقداته وأعماله، وعن كل ما ينسبه إلى الله بغير علم.

الوظيفة البنائية للمقطع في السورة

يؤدي هذا المقطع وظيفة محورية في البناء الكلي لسورة النحل؛ فبعد أن عرض المقطع السابق آيات الخلق والرزق والتدبير، وأقام الحجة على أن الخالق وحده هو المستحق للعبادة، يكشف هذا المقطع أسباب الإعراض عن الحجة: الاستكبار، والتقليد، وتشويه الوحي، والاحتجاج بالمشيئة على المعصية، وإنكار البعث، والمكر بالحق وأهله.

ثم يوازن الله سبحانه بين عاقبة المكذبين وعاقبة المتقين، ليبين أن الموقف من الوحي ليس أمرًا نظريًا لا أثر له، بل تترتب عليه نتائج في الدنيا والآخرة. ويؤكد كذلك أن الرسل جاءوا برسالة واحدة، أساسها عبادة الله واجتناب الطاغوت، وأن وظيفة الرسول البلاغ والبيان، وأن الهداية والتوفيق بيد الله، مع بقاء الإنسان مسؤولاً عن اختياره وعمله.

ويتكرر في المقطع موضوع النعمة الذي ظهر في الآيات السابقة، لكن من زاوية جديدة؛ فبعد أن رأى الإنسان نعم الله في الكون، يواجه هنا سؤالاً عن كيفية استقبالها: هل تقوده إلى الشكر والتوحيد، أم ينسى المنعم ويصرف شيئاً من حقه إلى غيره؟ وهكذا تتحول النعمة من دليل على وجود الخالق ووحدانيته إلى ميدان تظهر فيه حقيقة العبودية، ويُختبر فيه صدق الإيمان.

أما مشاهد خضوع الكون والملائكة لله، فتأتي لترد على الاستكبار الذي افترض به المقطع، وتؤكد أن التوحيد ليس قضية تخص الإنسان وحده، بل هو الحقيقة التي ينظم بها وجود المخلوقات كلها. ثم يعيد الختام ربط الرزق بالمسؤولية، محذراً من أن يجعل الإنسان الله شريكاً فيما رزقه، أو يختلق من عنده أحكاماً في العبادة والتحليل والتحرير.

والمقصد الجامع لهذا المقطع أن وضوح الحجة لا ينفع من جعل الاستكبار والهوى والتقليد حائلًا بينه وبين الحق، وأن النجاة تكون بالإيمان الصادق، وقبول الوحي، وإفراد الله بالعبادة، والاستعداد للبعث، والثبات على الحق مهما اشتدت مقاومة المكذبين.

وتتفرع عن هذا المقصد هدايات عملية: أن يتواضع الإنسان للحق ولو خالف مألوفه، وأن يتحرى العلم قبل القول والعمل، وألا يحتج بالقدر لتبرير المعصية، وأن يميز بين مشيئة الله الكونية وأمره الشرعي، وأن يوازن بين الخوف والرجاء، وأن يصبر على الدعوة والإصلاح دون أن يدعي امتلاك قلوب الناس، وأن يجعل النعمة سببًا للشكر لا للغرور، وأن يتذكر أن العقاب لله، وأن الظلم والمكر بالحق لا يمنحان صاحبها أمنًا دائمًا.

وبعد هذا البيان المطول لأصل التوحيد ومواقف المكذبين من الوحي والبعث، ينتقل المقطع التالي إلى تجديد الاستدلال بالنعم، ولكن من زاوية أقرب إلى معاش الناس اليومي؛ إذ يذكر الله الأنعام وما يخرج منها من اللبن، والتخيل والأعنان، ثم يخص النحل بالذكر وما أودع الله في خلقه من الهداية والمنفعة، لتتجدد الحجة من خلال نعم مألوفة تحمل في تفاصيلها دلائل القدرة والحكمة والرحمة.

المقطع الرابع: نعم الأنعام والثمار والنحل — من مجود المنعم إلى شهود آثار رحمته في خلقه
(الآيات ٥٧-٦٩)

قال الله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السُّوءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ ذَاتِهِ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّرَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضَكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِعًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ فَاقْرَأْ أُنْجِدِي مِنَ الْجَبَالِ يَبُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ [النحل: ٥٧-٦٩].

بعد أن أقام الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة حججه على وحدانيته، وبين ما في خلق السماوات والأرض والإنسان والبواب من دلائل قدرته، يكشف في هذا المقطع عن وجه آخر من وجوه اختلال الشرك: أنه لا يفسد تصور الإنسان لخالقه فحسب، بل يفسد كذلك ميزانه في الحكم على الخلق، ويقبل القيم التي فطر الله الناس على استقامتها. ومن هنا يبدأ المقطع بفضح تناقض المشركين في شأن البنات، ثم يقرر سمة الله في إهمال الظالمين، ويكشف عن عاقبة اتباع الشيطان، قبل أن ينقل الخطاب إلى آيات الحياة والرزق في

المطر والأنعام والثمار والنحل. وبهذا الترتيب يتبين أن التأمل في النعم ليس موضوعاً منفصلاً عن نقد الشرك، بل هو دعوة إلى تصحيح العلاقة بين العبد وربّه، وإعادة بناء نظرتّه إلى الحياة على أساس العبودية لله وشكره والإقرار بحكمته.

يقول الله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾، فيكشف عن تناقض عجيب في أحكام المشركين؛ إذ ينسبون إلى الله ما كانوا يعدّونه هم أنفسهم نقصاً في حقهم، ويختارون لأنفسهم ما يشتهون، ثم ينسبون إلى ربهم ما يكرهونه. وهذا هو الفساد حين ينفصل الحكم عن الوحي، ويصبح الهوى هو المعيار الذي يزن به الإنسان الحقائق. وقد نزه الله سبحانه وتعالى نفسه عن قولهم بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾، فكل ما نسبوه إليه من ولد أو شريك باطل، والله سبحانه وتعالى الغني عن خلقه، المنفرد بالكمال، الذي لا يشبهه شيء ولا يفتقر إلى أحد. وليس المقصود هنا مجرد إبطال نسبة البنات إلى الله، بل كشف أصل الخلل الذي أنتجها: أن الإنسان قد يعرف من دلائل قدرة الله ما يكفي لإقامة الحجة عليه، ثم يفسد معرفته باتباع الموروث الفاسد والهوى المتسلط.

ثم يكشف الله عن صورة هذا الخلل في حياة المشركين أنفسهم، فيقول: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۚ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾. فالبشارة التي ينبغي أن تستقبل بالحمد لله على نعمة الخلق، تتحول عند صاحب هذا التصور المنحرف إلى سبب للغم والعار الموهوم. ويتغير وجهه من شدة الكرب، ويكظم غيظه وحزنه، ثم يستخفي من الناس خشية أن تنال منه نظراتهم أو ألسنتهم. ولا ينشأ هذا الموقف من حقيقة في الأنثى، وإنما ينشأ من ميزان اجتماعي فاسد جعل قيمة الإنسان مرتبطة بجنسه، وجعل الكرامة تابعة لأحكام الجاهلية لا لميزان الله.

وتبلغ المفارقة غايتها حين يجد الرجل نفسه أمام خيارين كلاهما يكشف فساد تصوره: ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾. فالخيار الأول أن يقي ابنته في حياته وهو يراها مصدر مهانة، والخيار الثاني أن يقتلها ويدفنها حية. وقد كان وأد البنات من مظاهر

الجاهلية التي جاء الإسلام بإبطالها، وحُزِم الاعتداء على النفس بغير حق، وأقام كرامة الإنسان على عبوديته لله لا على جنسه أو ماله أو نسبه. والاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ إنكار إلهي حاسم لهذا الميزان المقلوب؛ فهم لا يسيئون إلى بناتهم وحدهن، بل يسيئون إلى أنفسهن وإلى حقيقة العبودية، إذ يعترضون بسلوكهن على قسمة الله، ويجعلون الهوى حاكماً على النعمة.

وفي هذا المعنى هداية تربوية باقية لكل زمان: قد تتغير صور الجاهلية، لكن أصلها يتكرر حين يربط الناس قيمة الأبناء والبنات بالمصلحة المادية أو المكانة الاجتماعية أو التوقعات الشخصية. ومن آثار ذلك أن تُفَضِّل فئة من الأبناء على أخرى، أو تُحرم البنات من حقوقهن في التعليم أو الميراث أو الرعاية، أو يُشعَرْنَ بأن وجودهن عبء على الأسرة. وهذه الممارسات لا تتساوى في أحكامها مع جريمة الوأد، لكنها تشترك معها في أصل فاسد حين يُجعل جنس الإنسان سبباً لانتقاص كرامته أو حرمانه من حق أوجهه الله. والمؤمن يزن الأمور بميزان الشرع، ويعلم أن الذكر والأنثى كلاهما عطية من الله، وأن التفاضل الحقيقي بالتقوى والعمل الصالح، لا بما تمليه أعراف الناس وأهوائهم.

ثم يقرر الله سبحانه وتعالى القاعدة التي تضع هذه المفارقة في إطارها العقدي، فيقول: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. فالمثل السيئ والوصف الناقص اللذان يليقان بأحوال الكافرين من الجهل والظلم وسوء الحكم، لا يجوز أن يُنسب شيء منها إلى الله سبحانه وتعالى، بل له الكمال المطلق في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله. و﴿الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ يتضمن كماله سبحانه وتزهه عن كل نقص، كما يتضمن أن ما يستحقه من التعظيم والخضوع والمحبة لا يستحقه أحد من خلقه على وجه العبادة. وهو ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ العزيز الذي لا يُغلب ولا يمتنع عليه شيء، والحكيم الذي يضع الأمور مواضعها، فلا يشرع لعباده إلا ما فيه العدل والصلاح، ولا يخلق شيئاً عبثاً. وهكذا يرتبط تصحيح الاعتقاد بتصحيح الأخلاق؛ فمن عرف كمال الله وحكمته، لم يجعل أهواء البشر معياراً للحكم على عطاياه.

وبعد بيان فساد أحكام المشركين، يقرر الله سبحانه وتعالى سنته في إهمال الظالمين، فيقول: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مَآ تَرَكَ عَلَيْنَا مِنْ ذَاتِهِ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾. فلو جازى الله الناس على ظلمهم فور وقوعه، لما بقي على الأرض من يدب عليها، ولكن رحمته وحكمته اقتضتا إهمالهم إلى أجل معلوم، تقوم به الحجة، وتتاح فيه فرصة التوبة والرجوع. وليس هذا الإهمال دليلاً على الرضا عن الظلم، ولا على غياب الحساب، بل هو من مقتضيات حكمته سبحانه؛ فقد يمهّل الظالم حتى يزداد طغياناً، وقد يفتح له باب التوبة، وقد يؤخر الجزاء إلى يوم الفصل الذي لا يضيع فيه حق.

وفي هذا المعنى يتربى المؤمن على ميزان دقيق في فهم الواقع: فلا يغتر بامتداد عمر الظالم أو اتساع سلطانه، ولا يظن أن تأخر العقوبة يعني الإفلات منها، كما لا ييأس من إصلاح الناس لمجرد ظهور الفساد. إنما الواجب أن يعمل للحق، ويصبر على طريقته، ويعلم أن للأحداث آجالاً، وأن الله لا يعجزه شيء. وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ يرّد الإنسان إلى حقيقة محدودة عمره وسلطانه؛ فالأجل الذي يحدده الله لا تدفعه قوة، ولا يقدمه خوف، ولا يؤخره تدبير. ومن هنا ينبغي أن يكون الإهمال فرصة للمراجعة لا ذريعة للغفلة، وأن يتحول إدراك قرب الحساب إلى إصلاح للنفس ورد للمظالم قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه الاعتذار المجرد من التوبة والعمل.

ثم يعود الله سبحانه وتعالى إلى كشف التناقض الذي يحكم تصورات المشركين، فيقول: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرْمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾. فهم ينسبون إلى الله ما يكرهونه لأنفسهم، ثم يزعمون لأنفسهم العقوبة الحسنة، كأنهم جمعوا بين فساد الاعتقاد وضمان النجاة بغير برهان. وتكشف الآية أن اللسان قد يصبح أداة لتزيين الباطل، حين يصف الإنسان ما يشتهي على أنه حق، ويجعل الأماني دليلاً على النجاة. وليس مجرد الانتساب إلى جماعة أو الاعتزاز بموروث أو ترديد

دعوى كافياً لتحقيق حسن العاقبة؛ فالنجاة مرتبطة بالإيمان الصادق والعمل الذي يرضاه الله، وليست ملكاً لأحد يضمّنه لنفسه بغير حجة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ يدل على أنهم متروكون إلى العذاب أو مقدّمون إليه، بحسب ما ذكره أهل التفسير في معنى اللفظ. والمهم في دلالة السياق أن دعواهم الحسنى لا تغير حقيقة مصيرهم إذا أصروا على الكفر والتكذيب. وهنا تتجلى مسؤولية الكلمة في حياة الإنسان؛ فمن الخطر أن يبرر المرء لنفسه الخطأ حتى يراه صواباً، أو يظن أن حسن الظن بالله يغنيه عن التوبة، أو أن الرجاء الصادق ينفصل عن الطاعة. فالرجاء المحمود يدفع إلى العمل، والتوبة الصادقة تصلح ما أفسده الذنب، أما الأمانى التي تُبقي صاحبها على الظلم والإعراض فليست من حسن الظن بالله، بل من الاعتزاز بالنفس.

ثم يربط الله سبحانه وتعالى ما وقع فيه هؤلاء بما جرى للأمم السابقة، فيقول: ﴿ثَالِثًا لَّعَدُ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. فليست هذه الانحرافات طارئة في تاريخ الإنسان، بل هي من سنن الابتلاء التي تتكرر حين يستجيب الناس لتزيين الشيطان، فيقلب لهم القبيح حسناً، والباطل حقاً، والظلم مصلحة، حتى يألّفوا الانحراف ويجادلوا عنه. وقد أرسل الله الرسل إلى الأمم السابقة ليبيّنوا لهم طريق الحق، فلم يكن هلاك المكذّبين بسبب غياب البيان، وإنما بسبب الإعراض عنه واتباع الهوى بعد قيام الحجة.

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ أن الشيطان يتولى إغواءهم وتزيين الباطل لهم في حياتهم الدنيا، وقد ذكر المفسرون في تحديد المراد بـ«اليوم» أقوالاً مرتبطة بسياق الخطاب؛ والمتيقن أن الآية تحذر من ولاية الشيطان واتباعه، وتبين أن من استسلم لتزيينه انتهى إلى العذاب الأليم. ولا يصح أن يُفهم من ذلك أن الشيطان يملك سلطاناً مستقلاً عن سلطان الله، فقد بيّن القرآن في موضع آخر أن سلطانه إنما يكون على من يتولونه ويستجيّبون لدعوته. وهنا تظهر أهمية الوعي بطبيعة الإغواء؛ فالانحراف لا يبدأ دائماً برفض الحق رفضاً

صريحًا، بل قد يبدأ بتبرير صغير، أو عادة فاسدة، أو شهوة تُتقدَّم على أمر الله، ثم يتركم التزيين حتى يصبح المنكر في عين صاحبه أمرًا مألوفًا أو مطلوبًا.

وفي مقابل تزيين الشيطان، يقرر الله سبحانه وتعالى وظيفة الوحي، فيقول: ﴿وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. فالقرآن الكريم بيان من الله لما اختلف فيه الناس من أصول الدين وحقائقه، وهدى لمن طلب الحق، ورحمة لمن آمن به واستجاب له. وليس المقصود من البيان مجرد تحصيل المعرفة النظرية، بل هداية الإنسان إلى عبادة ربه على بصيرة، وإقامة العدل، وتحرير العقل من سلطان الخرافة والهوى، وإصلاح الحياة وفق ما أنزل الله. وقد جعل الله رسوله صلى الله عليه وسلم مبيئًا لكتابه، فكانت سنته الصحيحة بيانًا للقرآن وتفصيلًا لما يحتاج إلى تفصيل من أحكامه ومعانيه.

ومن هنا تتضح الصلة بين هذا المقطع وما سبقه: فقد كشف الله فساد أحكام المشركين، ثم بيّن أن اتباع الهوى وتزيين الشيطان يقودان إلى الإعراض، ثم قرر أن الكتاب المنزل هو طريق البيان والهدى. والإنسان لا يستغني عن هذا الهدى بمجرد امتلاكه المعرفة أو تقدمه في أسباب الدنيا؛ لأن أصل المشكلة قد يكون في المعيار الذي يحكم به، وفي الدوافع التي توجه اختياره. ومن هدايات الآية أن يُردّ النزاع إلى الوحي، وأن يُطلب الحق بالدليل، وأن يُميّز بين ما يقرره الشرع وما تفرضه الأعراف أو المصالح المتوهمة، مع الالتزام بالعدل والإنصاف في فهم النصوص وتنزيلها.

وبعد أن قرر الله أن الكتاب هدى ورحمة، دعا عباده إلى النظر في آية محسوسة تتكرر أمامهم، فيقول سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾. فماء الذي ينزل بأمر الله سبب حياة الأرض بعد جديها، فتخرج من نباتها وأشجارها ما به قوام حياة الإنسان والحيوان. والمشهد الذي يتكرر في الفصول والمواسم يحمل دلالة تتجاوز المنفعة المادية؛ فهو يوقظ القلب إلى قدرة الله على الإحياء بعد الموت، ويجعل من دورة الحياة في الأرض شاهدًا على إمكان البعث الذي ينكره المكذبون.

وتأمل التعبير بقوله تعالى: ﴿فَاحْيَا بِهِ الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ إذ يلفت إلى أن ما يبدو للعين أرضاً هامة قد تختزن أسباب الحياة التي لا تظهر إلا حين يأذن الله بنزول الماء ونهيا أسباب الإنبات. وليس في هذا ما يقتضي أن تكون كل تفاصيل الظواهر الطبيعية معروفة للإنسان، بل إن اكتشاف الأسباب يزيد المؤمن إدراكاً لإحكام الخلق، ولا يلغي افتقار المخلوقات إلى خالقها. فالعلوم تدرس كيفية جريان الأسباب، أما القرآن فيوقظ الإنسان إلى دلالتها على قدرة الله وحكمته، وإلى مسؤوليته عن شكر النعمة وحسن استعمالها. وقوله تعالى: ﴿لَقَوْمٌ يَسْمَعُونَ﴾ لا يراد به مجرد وصول الصوت إلى الأذن، بل الانتفاع بالآيات حين يسمع الإنسان سماع قبول وتدبر، فينتقل من ملاحظة الظاهرة إلى إدراك دلالتها.

ثم يوجه الله سبحانه وتعالى عباده إلى نعمة أقرب إلى معاشهم اليومي، فيقول: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِذُوا بِطَوْلِهِمْ مِّنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لِّبَنَاءٍ خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾. فالأنعام التي ينتفع الإنسان بلحومها وألبانها وأصوافها وجلودها ليست مجرد مورد اقتصادي، بل هي آية من آيات تدبير الله. فمن بين ما في الجهاز الهضمي من مواد، وما يجري في البدن من دم، يخرج اللبن خالصاً صالحاً للشرب، بخصائصه الغذائية المعروفة. وقد تبه المفسرون إلى أن قوله تعالى: ﴿مِّنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ يلفت إلى عجب التكوين الذي يجري به خلق اللبن، لا إلى أن اللبن يمتزج بالفرث والدم ثم يُصَفَّى منها تصفية عادية؛ فالآية تصف نتيجة من نتائج تدبير الله في أجساد الأنعام، حيث يخرج اللبن متميزاً نقياً سائغاً للشاربين.

والعبرة هنا أن الإنسان قد يألف النعمة حتى لا يعود يراها آية؛ يشرب اللبن كل يوم، وربما لم يتوقف ليتأمل ما وراءه من خلق وتكوين وتسخير. والقرآن يعيد إلى المألوف دلالاته، فيوقظ القلب من الغفلة، ويعلمه أن شكر النعم يبدأ بمعرفتها، وأن المعرفة الصادقة تقود إلى الاعتراف بالمنعم، ثم إلى استعمال النعمة فيما يرضيه. ومن مقتضى الشكر أن تراعى حقوق الحيوان، وألا يُتخذ الانتفاع به ذريعة إلى تعذيبه أو إهمال حاجاته، وأن تُصان موارد الغذاء من الإسراف والفساد، وأن يُحمد الله على الرزق بدل أن يتحول الرزق إلى باب للكبر

والغفلة. فالانتفاع المشروع بالأنعام يجمع بين تسخير الله لها للإنسان ومسؤولية الإنسان عن حسن التعامل معها.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. فالآية تذكر ما يستخرجه الناس من ثمار النخيل والأعناب من مشروبات وأرزاق، وتلفت إلى تنوع المنافع التي جعلها الله في الثمار. وقد اختلف أهل التفسير في المراد بـ﴿سَكَرًا﴾؛ فقيل: ما يُتخذ من هذه الثمار من شراب مسكر، وقيل: ما يُتخذ منها من شراب أو طعام، وذكر بعضهم أن اللفظ في الآية يشير إلى ما كان الناس ينتفعون به قبل تحريم الخمر. والأظهر في ضوء مقابلة ﴿سَكَرًا﴾ بـ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ أن الآية تميز بين ما كان يُتخذ من الثمار وبين الرزق الطيب النافع، من غير أن يكون مجرد ذكر الشيء في سياق النعمة إقرارًا بإباحة كل ما يُصنع منه. وقد حرمت الخمر تحريمًا ثابتًا في الشريعة، فلا يجوز الاستدلال بهذه الآية على إباحتها؛ فدلالة النصوص تُجمع، ويُفسر بعضها ببعض، ويُعمل بالحكم الشرعي الذي استقر عليه التشريع.

وهذه فائدة منهجية مهمة في التفسير: أن وصف المادة الأصلية بأنها نعمة لا يعني أن كل استعمال لها مباح، فالإنسان مسؤول عن وجه الانتفاع بما سخر الله له. وقد تكون الثمرة الواحدة مصدرًا لطعام حلال نافع، وقد تُستعمل في أمر محرم؛ والعبرة ليست بالمادة وحدها، بل بحكم الشرع وطبيعة الاستعمال وآثاره. وهذا أصل واسع في حياة الناس، إذ إن المال والقدرة والعلم والتقنية كلها قد تكون أبواب خير إذا استعملت في الحق، وقد تتحول إلى أسباب فساد إذا انفصل استعمالها عن هداية الله. ومن هنا ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، لأن العقل الذي ينتفع بآيات الله ليس مجرد قدرة على التحليل، بل قدرة على التمييز بين وجوه النفع والضرر، وعلى إخضاع الرغبات لمعيار الحق.

ثم يبلغ المقطع ذروته في عرض نعمة النحل، فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾. والمراد بالوحي هنا الإلهام والهداية التي أودعها الله في النحل، فليست النحلة مكلفة بشرع كتكليف الإنسان، ولكن

الله هداها إلى ما به انتظام حياتها وبناء مساكنها. وهذا من دلائل حكمته سبحانه في خلقه؛ إذ جعل في هذه المخلوقات الصغيرة غرائز وطرائق سلوك تحقق لها أسباب البقاء والتكاثر وجمع الغذاء، وتنظم بها حياة الجماعة على نحو يثير التأمل في دقة الخلق وإحكام التدبير.

ويذكر الله تعالى للنحل مساكن في الجبال والشجر وما بينيه الناس من العرائش والمنازل الملائمة له، وفي ذلك إشارة إلى تنوع البيئات التي تعيش فيها، وإلى ما جعله الله في العالم من أسباب الانتفاع المتبادل بين الكائنات. والنحل ينتفع بالأزهار والثمار، ويسهم في تلقيح كثير من النباتات، وينج العسل الذي ينتفع به الإنسان، فتلقت في هذه المخلوقات الصغيرة منافع متعددة لا يدرك المرء جميع تفاصيلها من أول نظرة. ولا تحتاج دلالة الآية إلى تحميلها مصطلحات علمية لم ترد فيها؛ فالمقصود القرآني ظاهر في لفت الإنسان إلى أن الهداية والتدبير لا يختصان بما يعظم حجمه في نظره، وأن آيات الله قد تظهر في مخلوق صغير ير به الناس كل يوم من غير تدبر.

ثم يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ كَلَّمْنَا مِنْ كُلِّ الثَّوَابِتِ فَاسْأَلِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾. يأذن الله للنحل أن تنتفع بما جعل لها من مصادر الغذاء، ويهديها إلى سبلها التي تسلكها في جمع الرحيق والعودة إلى مساكنها. ووصف السبل بأنها ﴿ذُلُلًا﴾ يدل على تيسيرها وتذليلها للنحل بأمر الله، على ما ذكره أهل التفسير في توجيه اللفظ. وفي هذا المشهد يتجلى معنى عظيم: أن الهداية التي يجري بها أمر المخلوقات ليست استقلالاً لها عن خلقها، بل هي من تدبيره سبحانه، فهو الذي خلقها، وقدر لها أسباب معاشها، وأجرى عليها سننه. وإذا كانت النحلة تسلك ما هُديت إليه من طرقها، فإن الإنسان أولى بأن يطلب طريق ربه عن علم واختيار، وألا يجعل هواه قائداً له في الحياة.

ولا يصح أن يُحْتَلَّ هذا التشبيه معنى أن الإنسان مطالب بمجرد اتباع الغريزة أو الانقياد الأعمى؛ فالإنسان مكرم بالعقل والاختيار، ومطالب بالنظر في الوحي وفهمه والعمل به. وإنما موضع العبرة أن المخلوقات تجري في حدود ما خلقها الله له، بينما قد يملك الإنسان البيان ثم يعرض عنه، ويملك العقل ثم يستخدمه في تبرير هواه. وهنا تعود الصلة بما افتتح

به المقطع: فقد ذم الله قومًا أفسدوا ميزانهم في الحكم على البنات والنعمة، ثم عرض مخلوقًا صغيرًا يجري أمره على هداية ربه، ليوظ الإنسان إلى أن كماله ليس في الاستكبار عن العبودية، وإنما في معرفة الله والالتقياد لحقه.

ثم يبين الله ثمة هذا التدبير بقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. فالعسل شراب يختلف لونه باختلاف مصادره وظروف إنتاجه، وقد جعل الله فيه من المنافع ما ينتفع به الناس. وقوله سبحانه: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ يدل على أن في العسل خصائص نافعة في العلاج، كما يشهد لذلك ما ثبت في السنة الصحيحة من قصة الرجل الذي اشتكى بطن أخيه، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم بسقيه العسل، ثم بين له أن صدق الله في وعده لا ينافي تكرر العلاج حتى يحصل الشفاء. وقد أخرج البخاري ومسلم أصل هذه القصة بالفاظ متقاربة، وفيها بيان فضل العسل وما جعله الله فيه من المنفعة (صحيح البخاري، كتاب الطب، باب الدواء بالعسل، حديث ٥٦٨٤؛ صحيح مسلم، كتاب السلام، باب التداوي بسقي العسل، حديث ٢٢١٧).

ولا تعني الآية أن العسل علاج لكل مرض، أو أن التداوي به يغني عن سائر أسباب العلاج، فالشفاء بيد الله، والأدوية أسباب ينتفع بها وفق طبيعة المرض وحال المريض. وقد تختلف الاستجابة للعسل باختلاف الحالات، ولا سيما مع وجود أمراض أو ظروف صحية تستدعي احتياطًا خاصًا؛ ولذلك ينبغي الجمع بين الإيمان بفضل ما ذكره الله ورسوله وبين المعرفة الطبية المنضبطة. كما أن الاستفادة من العسل لا تقتصر على تناوله غذاءً، بل تتصل بما أودعه الله في الطبيعة من موارد نافعة تدعو إلى البحث المسؤول والتأمل في خصائص المخلوقات، من غير مبالغة في الادعاء أو نسبة ما لم يثبت إليها.

ولعل التعبير القرآني بقوله تعالى: ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ يفتح بابًا للتأمل في تنوع هذا الرزق، إذ يختلف العسل في لونه وطعمه وخصائصه باختلاف مصادر الرحيق والظروف المحيطة بإنتاجه. غير أن المقصد الأعمق ليس الوقوف عند التنوع الحسي وحده، بل الانتقال منه

إلى إدراك الحكمة والقدرة والرحمة. فالإنسان الذي يتفكر في النحل لا يرى مجرد حشرة تنج العسل، وإنما يرى آية على إحكام الخلق، وتسخير الأسباب، وتكامل المنافع، وعلى أن خالق هذا العالم لم يتركه هملًا، بل أجرى فيه من السنن ما تقوم به حياة المخلوقات وتتحقق به مصالحها.

ويختم الله سبحانه وتعالى هذا العرض بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. فقد انتقل الخطاب من آية الأرض التي تحيا بالماء، إلى اللبن الذي يخرج من الأنعام، إلى ثمار النخيل والأعناب، ثم إلى النحل والعسل؛ وكلها نعم مألوفة، لكن مألوفيتها لا تنفي عظمة دلالتها. وهذه الخاتمة تجمع خيوط المقطع في أصل واحد: أن دلائل الله لا تُدرك على وجهها الكامل بمجرد النظر العابر، بل تحتاج إلى عقل يتدبر، وقلب يعترف، وإرادة تستجيب. فالتفكر القرآني ليس ترفًا ذهنيًا، ولا جمعًا للمعلومات لذاتها، وإنما هو طريق إلى معرفة الخالق، وتعظيمه، وشكره، واستقامة العبد على أمره.

ومن هنا يظهر موقع هذا المقطع في البناء الكلي لسورة النحل. فقد بدأ بفضح تناقض المشركين حين نسبوا إلى الله ما يكرهونه لأنفسهم، ثم كشف عن ظلمهم في شأن البنات، وقرر أن الإهمال لا يعني إهمال الحساب، وأن تزوين الشيطان لا يغير حقيقة الحق والباطل. وبعد ذلك بين أن القرآن هدى ورحمة، وانتقل إلى آيات الرزق والتكوين ليقم أمام الإنسان شواهد محسوسة على قدرة الله وحكمته. فالمقطع لا يكتفي بتعداد النعم، بل يعيد تشكيل موقف الإنسان منها: بدل الجحود يأتي الشكر، وبدل اتباع الهوى يأتي الانقياد للوحي، وبدل الغفلة عن المألوف يأتي التفكر في آيات الله.

والهداية العملية التي ينتهي إليها هذا المقطع أن يراجع المؤمن موازينه في الحكم على الناس، فيحفظ كرامة الذكر والأنثى، ويرفض الأعراف التي تصادم شرع الله، ولا يغتر بإهمال الظالمين، ولا يطمئن إلى أمانى النجاة من غير إيمان وعمل. وأن يجعل من نعم الله اليومية أبوابًا للعبادة؛ فيشكر على الماء والغذاء والأنعام والثمار، ويتجنب الإسراف، ويحسن الانتفاع بالموارد، ويراعي حقوق المخلوقات، ويطلب العلم الذي يكشف وجوه النفع من

غير أن يقطع الصلة بالله خالق الأسباب. كما يتعلم أن التفكير لا يكتمل حتى يثمر استقامة، وأن معرفة النعمة لا تبلغ غايتها حتى تقود إلى معرفة المنعم.

وهكذا يقرر الله سبحانه وتعالى أن طريق التوحيد لا يقوم على إبطال الشرك بالحجة وحدها، بل على إصلاح الإنسان من داخله: في اعتقاده، وحكمه، وأخلاقه، ونظرته إلى الخلق، وطريقة انتفاعه بما وهبه الله. فمن عرف أن كل هذه الأرزاق من فضل الله، وأن هذا الإحكام من حكمته، وأن هذه الحياة سائرة إلى أجل لا يتقدم ولا يتأخر، لم يجعل هواه حاكمًا على الحق، ولم يتخذ النعمة وسيلة للغفلة، بل عاش عبدًا شاكراً، يستدل بالنعمة على المنعم، ويستعين بها على طاعته، ويرجو رحمته ولقائه.

المقطع الخامس: النعم الاجتماعية والأمثال والتحذير من جحود النعمة — من الاعتراف
بالفضل إلى مسؤولية الشكر (الآيات ٧٠-٨٣)

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُزِدْ إِلَىٰ أَرْزَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ۝ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنْ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِمَّا رَزَقْنَا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا ابْنُكُمْ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْتِمًا يُوَجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَإِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ۝ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْبَأْسَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ۝ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿النحل: ٧٠-٨٣﴾.

بعد أن عرض الله سبحانه وتعالى في المقطع السابق آيات الرزق في المطر والأنعام والثمار والنحل، ينتقل إلى نعم تتصل بحياة الإنسان الفردية والاجتماعية، وتحيط به منذ ولادته

إلى وفاته، وترافقه في بيته وعلاقاته ومعاشه وأمنه. غير أن هذا الانتقال لا يقتصر على زيادة تعداد النعم، بل يكشف عن حقيقة أعمق: أن الإنسان قد ينتفع بفضل الله في كل لحظة من حياته، ثم يغفل عن مصدره، وقد يقر بوجود النعمة بلسانه، ثم ينكر حق المنعم بسلوكه واعتقاده. ولهذا يجمع المقطع بين تقرير قدرة الله على الخلق والإماتة، وبين تفاوت الناس في الأرزاق، وذكر نعمة الأسرة، وضرب الأمثال التي تكشف فساد الشرك، ثم استعراض وسائل العلم والحماية والاستقرار، قبل أن يختم بتشخيص الداء الذي يعطل الانتفاع بكل هذه الآيات: معرفة النعمة مع إنكارها.

يقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُدْ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمْرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾. يبدأ البيان من الإنسان نفسه؛ فهو الذي يتلقى النعم، وبه تقوم العلاقات الاجتماعية، ومن خلاله تظهر آثار القدرة الإلهية في مراحل العمر وتقلبات الحياة. خلق الله الإنسان بعد أن لم يكن شيئاً، ومنحه أسباب الحياة والنمو والتعلم، ثم جعل الموت نهاية أجله في الدنيا، وقد يبلغه من الضعف ما تتراجع معه بعض قدراته العقلية والبدنية، حتى يحتاج إلى من يرعاه بعد أن كان قادراً على رعاية نفسه وغيره.

ووصف هذه المرحلة بـ﴿أَرْذَلِ الْعُمْرِ﴾ لا يعني انتقاص كرامة الإنسان المسن، وإنما يشير إلى ما قد يبلغه من ضعف بعد قوة، ومن نقص في بعض القدرات بعد اكتمالها. فالعبرة ليست بأن الإنسان فقد شيئاً من قوته، بل بأن قوته لم تكن مستقلة عن الله منذ البداية، وأن العلم الذي حصله والقدرة التي امتلكها عطايا قابلة للتغير والزوال. وقد يبلغ بعض الناس هذه المرحلة، وقد يموت آخرون قبلها؛ فالآية تصف حالاً من أحوال البشر، ولا تجعلها مصيراً لازماً لكل إنسان.

وفي هذا تربية عميقة للنفس والمجتمع؛ فالإنسان الذي يتذكر ضعفه في آخر عمره يتواضع في شبابه، ولا يغتر بقوة جسده أو سرعة فهمه أو سعة علمه. كما أن المجتمع الذي يستحضر هذه الحقيقة لا ينظر إلى كبار السن بوصفهم عبئاً، بل يؤدي حقوقهم، ويصون كرامتهم، ويعاملهم بالرحمة التي تليق بضعفهم وحاجتهم. ومن كان له والدان أو قريبان بلغا مرحلة

الوهن، فليتذكر أن الضعف ليس عيبًا يستحق الإهمال، وأن الوفاء لمن أفنى عمره في الرعاية والعطاء من أعظم أبواب البر.

ثم تختم الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾، لتقرر أن ما يجري في حياة الإنسان من قوة وضعف، وعلم ونسيان، وحياة وموت، لا يخرج عن علم الله وقدرته. فهو سبحانه يعلم أطوار خلقه، ويعلم ما يصلحهم في كل مرحلة، ولا يعجزه شيء من أمرهم. وفي ذلك أيضًا تذكير بأن العلم البشري، مهما اتسع، يظل محدودًا، وأن الإنسان لا ينبغي أن يجعل ما حصله من معرفة سببًا للاستكبار، بل وسيلة لفهم سنن الله وخدمة خلقه.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَتَحَدَّوْنَ﴾. يقرر الله أن أرزاق الناس ليست متطابقة في مقاديرها وصورها، وأن بينهم تفاوتًا في الأموال والقدرات والفرص والأسباب التي تهيأت لهم. وهذا التفاوت جزء من واقع الحياة الذي تجري فيه سنن الله، وليس دليلًا بذاته على أن الغني أفضل عند الله من الفقير، أو أن صاحب المنصب أكرم على الله من غيره. فالميزان الذي يحدد منزلة الإنسان عند ربه هو التقوى، أما تفاوت الأرزاق فمجال للابتلاء والمسؤولية، لا أساس للتفاخر والاستعلاء.

ويأتي المثل المتصل بالماليك في سياق واقع اجتماعي كان الرق قائمًا فيه، ليكشف تناقض المشركين في باب التوحيد. فقد كان الواحد منهم يستنكف أن يجعل مملوكه شريكًا له في ماله وتصرفه، مع أن المملوك إنسان مثله، ثم يجعل لله شركاء من خلقه الذين لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم استقلالًا بالنفع والضرر. فكيف يقبل في حق الخالق ما لا يرضاه لنفسه في حق المخلوق؟ وليس المراد من المثل تقرير أن تفاوت البشر في المكانة الاجتماعية دليل على تفاوتهم في الكرامة الإنسانية، ولا تثبيت الاسترقاق حكمًا اجتماعيًا مطلوبًا، وإنما المراد إقامة الحجة على فساد الشرك من خلال أمر يعرفه المخاطبون من واقعهم.

وقد جاء الإسلام بأحكام كثيرة تحت على تحرير الرقاب، وتجعل العتق من أعمال البر والكفارات في مواضع متعددة، وتقرر للمملوك حقوقاً تمنع ظلمه والاعتداء عليه. ومن ثم ينبغي أن يفهم المثل في غرضه الذي سيق له، لا أن يُحتمل ما لا يدل عليه. فالحجة تقوم على أن من لا يملك شيئاً استقلالاً لا يستحق أن يُعبد، وأن الله سبحانه وتعالى هو المالك الحقيقي لكل شيء، المتفرد بالخلق والرزق والتدبير.

ويجزم الله الآية بالاستفهام الإنكاري: ﴿أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَتَّخِذُونَ﴾، ليربط بين فساد الاعتقاد وجود النعمة. فالشرك ليس خطأ ذهنيًا معزولاً عن الحياة، بل هو إنكار لحق المنعم، وصرف للعبادة إلى من لا يستحقها، وإخلال بالميزان الذي ينبغي أن يحكم علاقة الإنسان بربه. وإذا كان الإنسان يقر بأن رزقه من الله، وأن حياته وقدرته لا تستقلان عنه، فإن مقتضى هذا الإقرار أن يخلص العبادة له، وألا يجعل مخلوقاً شريكاً له في شيء من خصائص الوهيته.

ثم يذكر الله نعمة الأسرة، فيقول: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنًا وَحَفْذَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِعِزَّةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾. فالعلاقة الزوجية من آيات الله التي جعل فيها السكن والمودة والرحمة، ومنها تتكون الأسرة التي تحفظ الحياة الإنسانية وتقوم فيها مسؤوليات التربية والرعاية والتعاون. وقد جعل الله الأزواج من جنس البشر، لتحقيق بينهم الألفة وإمكان التفاهم والتكامل، وليجد كل واحد منهم في الآخر سكناً ووعواً على أعباء الحياة.

ثم يذكر سبحانه الذرية والحفدة، والحفدة هم من يتصلون بالإنسان من ذريته وأهل بيته، وقد فسرهم أهل التفسير بأقوال متقاربة تتصل بالأبناء وأبنائهم أو بمن يعينون الإنسان ويخدمونه من أهله. والمقصود إبراز ما في امتداد الأسرة من نعمة، وما يهيئه الله فيها من أسباب الأئس والتعاون واستمرار الحياة بين الأجيال. غير أن ذكر هذه النعمة لا يعني أن كل إنسان لا بد أن يرزق أولاداً، أو أن من لم يرزق الذرية ناقص الخطوة عند الله؛ فالأرزاق تتنوع، والله يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور، ويعمل من يشاء عتقياً،

وله الحكمة في ذلك. وإنما العبرة أن ما يصل إلى الإنسان من الأسرة والزرية رزق يستوجب الشكر، لا حق يبيح له التكبر على غيره أو الانتقاص ممن حُرِمَ منه.

ومن تمام شكر هذه النعمة أن تُبنى الأسرة على العدل والرحمة، وأن يؤدي كل فرد فيها حقوق الآخرين، وأن تُربى الزرية على الإيمان والصدق والأمانة، وأن تكون العلاقة الزوجية قائمة على المعروف لا على الاستبداد والإيذاء. فليس شكر الأسرة أن يفرح الإنسان بوجودها فحسب، بل أن يحسن القيام بأمانتها. وقد جعل الله الأولاد زينة للحياة الدنيا، لكنه جعلهم أيضًا مسؤولية يسأل عنها الوالدان؛ فالرعاية ليست طعامًا وكساء فقط، بل تشمل التربية والتعليم والتوجيه وحفظ الكرامة.

ثم يلفت الله إلى الرزق الطيب الذي تقوم به الحياة، ويعيد الاستفهام الذي يكشف أصل التناقض: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِعَمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾. فهؤلاء ينتفعون بما أتاحه الله لهم من الزوج والأولاد والطيبات، ثم يصرفون العبادة إلى غيره، أو ينسبون النعم إلى أسباب ومعبودات لا تملك خلقها ولا استقلالاً بتدبيرها. والآية لا تنكر الأخذ بالأسباب؛ فالإنسان مأمور بالعمل والسعي، وإنما تنكر أن تتحول الأسباب إلى بديل عن الاعتراف بفضل الله، أو أن تُمنح المخلوقات حقًا من حقوق الخالق.

وهنا يتجاوز التوجيه القرآني زمن نزول الآيات إلى كل صورة من صور مجود النعمة في حياة الإنسان. فقد يقر المرء بأن المال جاء من عمله، وينسى ما منحه الله من صحة وعقل وفرص وبيئة وأشخاص أعانوه. وقد يظن أن نجاح أسرته أو مؤسسته ثمرة تدبيره وحده، فيغفل عن فضل الله وعن حقوق من شاركوه في بناء ذلك النجاح. وليس المطلوب إنكار الجهد البشري أو التقليل من قيمة العمل، بل وضع كل شيء في موضعه: نعمل بالأسباب، وننسب الفضل إلى الله، ونشكر الناس على إحسانهم، ولا نجعل نعمة الله بابًا للغرور أو الاستعلاء.

ثم يقرر الله حقيقة بطلان المعبودات التي لا تملك شيئاً من الرزق، فيقول: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾. فالملطر الذي ينزل من السماء، والنبات الذي يخرج من الأرض، وما ينتفع به الإنسان من طعام وشراب، كلها من خلق الله وتديره. أما ما عُبد من دونه من أصنام أو أوثان أو مخلوقات، فلا يملك أن يخلق رزقاً من العدم، ولا أن يستقل بتدبير ما يحتاج إليه العباد. وإذا كان الإنسان لا يرضى أن ينسب إلى مخلوق ضعيف ما لا يقدر عليه، فكيف يصرف إليه عبادة لا يستحقها إلا الله؟

ويشمل المعنى كذلك كل تعلق قلبي يجعل مخلوقاً مصدرًا مستقلًا للنفع والضر، أو يعتقد أن أحداً يتصرف في الكون استقلالاً عن مشيئة الله. أما الاستعانة بالمخلوق فيما يقدر عليه، والأخذ بالأسباب المشروعة، وطلب الرزق من الناس بطرق مباحة، فكل ذلك لا يناقض التوحيد؛ لأن الفرق قائم بين سبب جعل الله له أثراً، وبين معبود يُصرف له شيء من العبادة، أو يُعتقد فيه الاستقلال بما لا يقدر عليه إلا الخالق سبحانه.

وبعد إبطال الشرك، يقول الله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. أي لا تجعلوا لله أمثالاً من خلقه، ولا تقيسوا كماله سبحانه على أحوال المخلوقين واحتياجاتهم، ولا تنسوا إليه ما لا يليق بجلاله. فالله سبحانه وتعالى هو الخالق العليم، لا يقاس على خلقه قياس تمثيل، ولا تثبت له خصائص المخلوقين. وقد أقام الله الحجج في هذا المقطع على فساد الشرك من خلال الأمثلة التي يعرفها الناس، لكن هذه الأمثلة لا تعني أن الخالق يماثل المخلوق، بل المقصود بها تقريب بطلان عبادة غير الله إلى الأفهام.

وفي هذا تنبيه إلى أدب عظيم في باب العقيدة: أن يكون حديث الإنسان عن الله قائماً على الوحي، وأن يتوقف فيما لا علم له به، وألا يجعل تصويره المحدود حاكماً على صفات الله وأفعاله. فالعقل نعمة عظيمة، لكنه لا يستقل بمعرفة الغيب ولا يحيط بالله علماً؛ وإنما يهتدي بما أقامه الله من براهين، وما أنزله من الوحي. ولهذا جاء ختام الآية بالتذكير بالفارق بين

علم الله المحيط وعلم الإنسان المحدود، حتى لا يتحول القياس البشري إلى أداة لتشويه حقيقة التوحيد.

ثم يضرب الله مثلاً يوضح الفرق بين من لا يملك شيئاً وبين من رزقه الله القدرة على التصرف والإنفاق، فيقول سبحانه: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. يضع الله أمام العقل صورتين متباينتين: عبداً مملوكاً لا يملك استقلال التصرف، ورجلاً رزقه الله رزقاً حسناً فأصبح قادراً على الإنفاق منه سراً وعلانية. فلا يستوي من لا يملك شيئاً مع من رزقه الله القدرة على العطاء والتصرف.

ومحل الاستدلال أن المعبودات التي يعبدها المشركون من دون الله لا تملك لنفسها ولا لغيرها قدرة مستقلة على الخلق والرزق، بينما الله سبحانه وتعالى هو الرازق المالك المدبر. فإذا كان الناس يدركون الفرق بين من لا يملك شيئاً ومن يملك ويتصرف، فكيف يسوون بين الخالق والمخلوق في العبادة؟ وليس المقصود بالمثل أن كل من يملك مالاً أعلى قدرًا عند الله من الفقير، ولا أن قيمة الإنسان تتحدد بما في يده من ثروة؛ فالغنى والفقير ابتلاءان، والكرامة عند الله بالقوى. إنما المقصود ببيان الفرق بين العجز والقدرة في مقام الاحتجاج على بطلان الشرك.

ويأتي قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تقريراً لاستحقاقه سبحانه الحمد الكامل؛ فهو المنعم والرازق، وله وحده حق العبادة. ثم يكشف الله عن سبب استمرار الشرك بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ فالمشكلة ليست دائماً في غياب الأدلة، بل قد تكون في تعطيل دلالتها أو الإعراض عما تقتضيه. وقد يعرف الإنسان الفرق بين العاجز والقادر في أمور معاشه، لكنه لا يستعمل هذا الفهم في أعظم قضية تتعلق بعبادته ومصيره.

ثم يضرب الله مثلاً آخر، فيقول: ﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْتَمًا يُوَجَّهَةٌ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى

صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ». يبين الله الفرق بين رجل أبكم لا يستطيع أن يبين مراده، ولا يقدر على القيام بما يطلب منه في هذا المثل، ويكون عبثًا على من يتولى أمره، وبين رجل يأمر بالعدل، ويقوم على طريق مستقيم، ويهدي غيره إلى الحق. فأين هذا من ذاك؟ وأين من لا يقدر على نفع نفسه من الذي يكون قوله وعمله قائمين على العدل والاستقامة؟

وقد ذكر المفسرون في المراد بالمثل أقوالًا، منها أنه تصوير للفرق بين المعبودات الباطلة التي لا تملك نفعًا ولا هداية، وبين الله سبحانه وتعالى الذي يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم. والمقصود الذي يجمع دلالة المثل أن من لا يقدر على شيء، ولا يهدي إلى خير، لا يصلح أن يكون معبودًا، بينما الله سبحانه وتعالى كامل في أسائه وصفاته وأفعاله، يأمر عباده بالعدل، ويهديهم إلى الصراط المستقيم. وليس في وصف الرجل الأبكم انتقاص لكل إنسان لديه إعاقة في النطق أو غيره؛ فالمثل يصور عجزًا مركبًا عن أداء المقصود منه، كما يصفه السياق، ولا يجعل الإعاقة في ذاتها معيارًا لكرامة الإنسان أو منزلته عند الله.

ومن الهدايات التي يستفاد منها أن قيمة الإنسان لا تنحصر في قدرته على الكلام، بل في الحق الذي يقوله والعمل الذي يؤديه والعدل الذي يقيمه. فكم من إنسان قليل الكلام عظيم الأثر بصدقه وإحسانه، وكم من متكلم يكثر من الادعاء ولا يأتي بخير. والقرآن يربط الاستقامة بالعدل، لأن العدل ليس شعارًا مجردًا، بل سلوك يظهر في الحكم بين الناس، وفي أداء الحقوق، وفي الوفاء بالعهد، وفي معاملة الضعيف، وفي الاعتراف بالفضل لأهله. وهكذا يربط المثل بين تصحيح العقيدة وإصلاح السلوك؛ فالله الذي يستحق العبادة هو الذي يأمر بالعدل، ومن صدق في توحيده وجب أن يظهر أثر ذلك في عدله وإحسانه.

وبعد هذين المثليين، يعيد الله سبحانه وتعالى توجيه الإنسان إلى حقيقة قدرته المحيطة، فيقول: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمُرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. فكل ما غاب عن إدراك البشر من أحوال السماوات والأرض، وما استأثر الله بعلمه من الغيب، فهو له سبحانه، لا يحيط أحد بشيء منه إلا بما شاء الله أن يطلعه عليه. ومن ذلك وقت قيام الساعة، الذي لا يعلمه على وجه التحديد إلا الله.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ يقرر كمال القدرة الإلهية وسرعة نفاذ الأمر حين يشاء الله. فقيام الساعة ليس أمراً يعجز الله أو يحتاج في إحداثه إلى زمن يقدره البشر، وإنما هو متعلق بمشيئته سبحانه وقدرته المطلقة. وليس المراد أن الساعة قد حُدد موعدها للناس، بل إن وقتها من الغيب الذي استأثر الله بعلمه، وأن وقوعها بالنسبة إلى قدرته لا يعجزه ولا يشق عليه.

وفي هذا انتقال من أمثال محسوسة يفهمها الإنسان في واقعه إلى حقيقة غيبية كبرى تتعلق بمصيره. فكما أن الله قادر على الخلق والإماتة، وعلى إحياء الأرض بعد موتها، فهو قادر على إقامة الساعة وبعث الخلق ومحاسبتهم. ومن ثم لا ينبغي أن يغتر الإنسان بطول الأمد، أو يستبعد وقوع الحساب لمجرد أنه لم يشهده؛ فالزمن الذي يبدو طويلاً في تقدير البشر لا يحد قدرة الله، ولا يغير حقيقة ما أخبر به سبحانه. والإيمان بالساعة يحجر الإنسان من وهم أن الحياة الدنيا هي النهاية، ويجعله يزن أعماله بميزان العاقبة لا بميزان المنفعة العاجلة وحدها.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. يعود البيان إلى بداية حياة الإنسان، حين خرج إلى الدنيا لا يحمل علماً مكتسباً، ثم جعل الله له وسائل التعلم والإدراك: السمع الذي يتلقى به الأصوات والمعارف، والبصر الذي يدرك به المرئيات، والأفئدة التي يعقل بها ويتدبر ويستنبط. فالعلم الذي يكتسبه الإنسان ليس شيئاً مستقلاً عن فضل الله، بل يقوم على قوى وقدرات وهبها الله له، وعلى ما يهيئه له من أسباب التعلم والخبرة والتجربة.

وفي الآية دلالة على شرف التعلم، وعلى أن المعرفة من أعظم النعم التي تستوجب الشكر. غير أن الشكر لا يتحقق بمجرد الاعتراف بفضل الحواس، بل باستعمالها فيما ينفع، وصيانتها عما يفسد القلب والعقل، والتمييز بين الحق والباطل، والانتفاع بالعلم في إصلاح النفس والناس. فالسمع قد يكون طريقاً إلى القرآن والعلم النافع، وقد يُشغل بالباطل؛ والبصر قد يكون وسيلة للتفكير في خلق الله، وقد يُستعمل في النظر المحرم؛ والعقل قد يهدي صاحبه

إلى فهم الحق، وقد يسخره لتبرير أهوائه. ولهذا ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿أَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، لتربط القدرة على المعرفة بمسؤولية استعمالها.

وتتضمن الآية أيضًا تصحيحًا للتصور المتكبر عن العلم؛ فالإنسان لا يولد عالمًا، بل يبدأ حياته جاهلًا، ثم يتعلم شيئًا فشيئًا، مما بلغ من التقدم والخبرة. ومن تذكر هذه البداية لم يستكبر على من يتعلم، ولم يحتقر من يجهل، ولم يظن أن علمه قد أحاط بكل شيء. بل يجمع بين الاجتهاد في طلب المعرفة والتواضع أمام ما يجهله، ويعلم أن كل تقدم حقيقي في العلم ينبغي أن يقوده إلى مزيد من إدراك حدود النفس وعظمة الخالق.

ثم يدعو الله سبحانه وتعالى عباده إلى النظر في الطير، فيقول: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. فمشهد الطيور وهي تحلق في الفضاء وتنقل بين الأماكن مشاهد مألوف، لكنه يحمل دلالة على إحكام الخلق وتسخير الأسباب. وقد أودع الله في أجساد الطيور من الخصائص، وهياً لها من سنن الحركة والطيران، ما يمكنها من التحليق وفق ما خلقها له. ودراسة هذه الخصائص لا تنفي نسبة الخلق والتدبير إلى الله، بل تكشف عن بعض الأسباب التي أجرى الله بها سننه في الكون.

وقوله تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ يقرر أن بقاء هذه المخلوقات وقدرتها على الطيران لا يخرج عن سلطان الله وتدبيره، فهو خالقها وخالق السنن التي تنتظم بها حركتها. وليس المقصود نفي الأسباب الطبيعية التي يعرفها الإنسان، بل بيان أن الأسباب نفسها مخلوقة لله، وأن انتظامها واستمرارها لا يستقلان عن مشيئته. والمؤمن لا يقف عند وصف الظاهرة، بل ينتقل منها إلى معرفة الخالق وشكره، ويزداد تواضعًا كلما ازداد فهمًا لما في الكون من إحكام.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾.

بعد ذكر نعم العلم والإدراك، يبين الله ما أتاحه للإنسان من أسباب السكن والاستقرار والحماية. فالبيت ليس مجرد بناء يقي من الحر والبرد، بل موضع سكونية، ومجال للأسرة، ومستقر للراحة والخصوصية، ومكان تؤدي فيه كثير من شؤون الحياة والعبادة.

كما جعل الله للناس من جلود الأنعام ما يصنعون منه بيوتاً يسهل حملها في السفر والتنقل، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها ما ينتفعون به في الأثاث واللباس وسائر المتاع. وهذا يبين سعة النعم التي تتصل بحياة الإنسان، وأن الانتفاع بال مخلوقات لا يقتصر على وجه واحد، بل تتعدد منافعه بحسب ما يهيئه الله من خصائصها وما يتعلمه الإنسان من طرائق استعمالها. والبيوت المتنقلة المذكورة في الآية تناسب أحوال أقوام كانوا يرحلون طلباً للماء والمرعى، أما اليوم فتتنوع صور المساكن ووسائل الراحة بحسب البيئات والقدرات، وتبقى دلالة الآية قائمة في أصلها: أن الله جعل للإنسان من خلقه ما يستعين به على السكن والحركة والاستقرار.

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ يذكر بمحدودية الانتفاع الدنيوي؛ فالأثاث والمتاع مهما كثر لا يدوم، وإنما يصحب الإنسان مدة من عمره، ثم يتركه عند موته أو يفقده قبل ذلك. فلا ينبغي أن يتحول البيت من نعمة للسكن إلى غاية يتكبر بها صاحبه على الناس، ولا أن يصبح جمع الأثاث والممتلكات محور الحياة على حساب الأسرة والعبادة والحقوق. إنما تكمل نعمة المسكن حين يكون موضعاً للسكنية، وحين يحفظ أهله من الظلم والفساد، ويعينهم على الطاعة والتراحم.

ثم يواصل الله تعداد النعم، فيقول سبحانه: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ لَكُمْ نِعْمَتَهُ﴾. يذكر الله ما جعل للإنسان من ظلال تقيه حر الشمس، ومن مواضع في الجبال يلجأ إليها ويحتفي بها، ومن ثياب تحفظ جسده وتقيه الأذى، ومن لباس ووسائل وقاية تحميه في القتال. والسراويل هي الثياب، وتشمل الآية ما يتخذ الإنسان من

لباس يقيه الحر وسائر ما يحتاج إلى الوقاية منه، كما تشمل الدروع ونحوها مما يحميه من بأس الحرب.

وهذه النعم تكشف عن أن عناية الله بالإنسان لا تنحصر في توفير الطعام والشراب، بل تشمل تفاصيل حياته التي قد يعتادها حتى يغفل عن قيمتها. فالظل الذي يستريح فيه، والبيت الذي يأوي إليه، والثوب الذي يستر جسده، ووسائل الحماية التي تدفع عنه الأذى، كلها من وجوه النعمة التي تسر له العيش وتعينه على أداء مسؤولياته. وفي ذلك دعوة إلى شكر الله على ما قد يبدو صغيراً أو مألوفاً، وإلى إدراك أن الحضارة الإنسانية، بما تشتمل عليه من مساكن وألبسة ووسائل حماية، تقوم على تسخير الله للمخلوقات وإقدار الإنسان على التعلم والعمل.

ويبرز في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ معنى الشمول والتكامل؛ فالنعم ليست متفرقة بلا رابط، وإنما تتساند لتقيم حياة الإنسان: غذاء يحفظ البدن، وأسرة تحقق الأُس، وعلم يفتح أبواب الفهم، ومسكن يوفر السكينة، ولباس يحفظ الجسد، وأسباب حماية تدفع الأخطار. وكلما تأمل الإنسان هذا التكامل أدرك عظيم افتقاره إلى الله، وعرف أن ما يملكه من أسباب لا يبرر الاستكبار، بل يوجب الحمد والتواضع وحسن استعمال ما أُعطي.

أما قوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، فبين الغاية التي ينبغي أن تقود إليها معرفة النعم: أن يستسلم العبد لله بالتوحيد والطاعة، ويقر له بالعبودية، ويخضع لأمره عن علم ومحبة. فليس المقصود من النعم أن يزداد الإنسان متاعاً فحسب، وإنما أن تقوده إلى المنعم، وأن يستعين بها على مرضاته. وقد يكون الإنسان واسع الرزق، كثير المتاع، لكنه لا ينتفع بنعمه إذا جعلها حجاباً بينه وبين الله؛ بينما قد يكون قليل المال، لكنه يحقق من الشكر والعبودية ما يرفعه عند ربه.

ومن هنا يظهر الفرق بين الانتفاع بالنعمة والاهتداء بها. فقد يشترك المؤمن والكافر في الانتفاع بالماء واللباس والسكن، لكن المؤمن يتجاوز ظاهر المنفعة إلى الاعتراف بالفضل، ويجعل النعمة وسيلة للطاعة، أما من جحد المنعم فقد حرم نفسه الثمرة الإيمانية التي ينبغي أن تنتجها النعمة. وليس معنى ذلك أن كل مصيبة تصيب الإنسان دليل على نقص منزلته، أو أن كل سعة في الرزق علامة رضا الله؛ فالنعمة والابتلاء يجريان بحكمة الله، ويكون حال العبد في كليهما بحسب إيمانه وصبره وشكره وعمله.

ثم يقول الله تعالى مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿إِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾. فبعد هذا البيان المتتابع للحجج والنعم، قد يعرض بعض الناس عن الحق، لا لقصور في وضوح الدليل، بل لاستحكام الهوى أو الإصرار على التقليد الباطل. وهنا يقرر الله أن وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم هي البلاغ الواضح، وأن هداية القلوب ليست بيد بشر؛ فالله وحده يهدي من يشاء بحكمته، والرسول يبلغ الرسالة ويقيم الحجة ويبين الطريق.

وفي الآية تنبئت للبدعة والمصلحين في كل زمان؛ إذ لا يجوز أن يجعلوا إغراض بعض الناس سبباً لتزكك البيان، ولا أن يحملوا أنفسهم ما لا يملكون من نتائج الهداية. عليهم أن يبينوا الحق بعلم ورحمة وحكمة، وأن يلتزموا الصدق والعدل، وأن يصبروا على الأذى، أما قبول الناس فليس كله في أيديهم. وفي الوقت نفسه لا تعني الآية أن البلاغ يعني الداعية من مسؤولية حسن البيان؛ فالوصف بـ﴿الْمُبِينُ﴾ يقتضي أن يكون الحق موضحاً بالحجة والعبارة المناسبة، بعيداً عن التشويش والافتراء وسوء العرض.

ثم يختم الله المقطع بتشخيص جامع لما سبق، فيقول سبحانه: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾. وهذه الآية هي مفتاح المقطع كله؛ إذ تلخص التناقض بين كثرة النعم وغياب الشكر. فالناس قد يعرفون أن ما بأيديهم من رزق وصحة وأسرة وأمن ومسكن إنما هو من فضل الله، وقد تدلم على ذلك الفطرة والعقل والآيات التي يشاهدونها، ثم ينكرون حق الله في العبادة والطاعة، أو ينسبون النعمة إلى غيره، أو

يستعملونها فيما يسخطه. والمعرفة هنا لا تعني بالضرورة الإيمان الكامل، فقد يعرف الإنسان حقيقة ما ثم يعاندها أو لا يفي بما تقتضيه.

وجود النعمة له صور متعددة؛ فمنه الجحود الاعتقادي الذي يصرف العبادة إلى غير الله، ومنه الجحود القولي الذي ينسب الفضل إلى غير المنعم، ومنه الجحود العملي الذي يظهر في استعمال النعمة في المعصية، أو الإسراف، أو منع الحقوق الواجبة، أو التكبر على الناس. ولا يلزم أن تكون هذه الصور في مرتبة واحدة من الحكم؛ فالشرك والكفر لهما أحكامهما، والمعاصي والتقصير تتفاوت بحسب حقيقتها وأحوال أصحابها، ولا يجوز التسرع في تكفير معين لمجرد وقوعه في ذنب أو تقصير. لكن الجامع التربوي بينها أن النعمة أمانة، وأن من تمام شكرها الاعتراف بفضل الله، وصرف العبادة له، وأداء ما أوجبه من الحقوق، واستعمال عطائيه فيما ينفع.

ومن أخطر صور الجحود أن تتحول النعمة إلى سبب للغفلة عن الله؛ فيظن الإنسان أن ما وصل إليه من نجاح يكفيه، أو أن قوته وعلمه وثروته تضمن له الاستغناء عن ربه. وقد يتحول الرزق إلى وسيلة للظلم، والمنصب إلى أداة للاستعلاء، والعلم إلى باب للغرور، والأسرة إلى مجال للقهر بدل الرحمة. وهنا لا يكون الخلل في أصل النعمة، بل في موقف الإنسان منها وفي الطريقة التي يوظفها بها. ولذلك فإن شكر الله لا ينفصل عن إصلاح السلوك، ولا عن العدل في المعاملة، ولا عن رعاية الضعيف، ولا عن رد الحقوق إلى أصحابها.

وإذا جمعنا أطراف هذا المقطع، وجدنا أن الله سبحانه وتعالى بدأ بتذكير الإنسان بمحدودية عمره وقدرته، ثم بين تفاوت الأرزاق، وذكر نعمة الأسرة والطيبات، وأقام الأمثال على بطلان الشرك، وذكر غيب الساعة، ثم استعرض وسائل العلم والسكن والحماية. وانتهى إلى أن أصل الباء هو معرفة النعمة ثم إنكارها. وهذا البناء يكشف أن المقصد ليس مجرد إحصاء ما يتنعم به الإنسان، وإنما تربيته على فهم موقعه من هذه النعم: فهو مخلوق لا يستقل بنفسه، ومتعلم لم يولد عالماً، ورازق له سبحانه لا يملك لنفسه استقلالاً بالرزق،

وعضو في أسرة ومجتمع تقوم حياته على التعاون والحقوق، ومسؤول عن استعمال ما أُعطي في الدنيا، ثم صائر إلى أجل يحاسبه الله فيه على عمله.

ومن الهدايا العملية لهذا المقطع أن يجعل المؤمن الشكر منهجاً متكاملًا لا كلمة تنقل باللسان فحسب؛ فيحمد الله بقلبه، ويثني عليه بلسانه، ويستعمل نعمه في طاعته، ويحفظ حقوق الناس فيما رزقه الله. ومن شكر نعمة المال أن يكتسبه من الحلال، ويؤدي زكاته وحقوقه، وينفق منه في الخير من غير إسراف ولا بخل. ومن شكر نعمة العلم أن يطلب به الحق، وينفع به الخلق، ويتواضع لما يجهله. ومن شكر نعمة الأسرة أن يقيمها على المعروف، ويحفظ حقوق الزوج والزوجة والأبناء، ويرعى الوالدين وكبار السن. ومن شكر نعمة المسكن والأمن أن يعترف بفضل الله، وألا ينسى من حُرِّموا الاستقرار أو يعيشون تحت الخوف والحاجة، وأن يسهم بما يستطيع في رفع الظلم وإغاثة الملهوف.

ومن شكر النعمة أيضًا أن يتجنب الإنسان المقارنة التي تفسد قلبه، فلا يجعل تفاوت الأرزاق مدخلًا للحسد أو الاحتقار، بل يعلم أن الله يتلي عبادَه بالعباءة والمنع، وأن ما في يد غيره ليس دليلًا على نقصان قدره. كما ينبغي أن يراجع المرء مصادر الفضل في حياته، فلا ينسب النجاح إلى نفسه وحدها، ولا ينكر إحسان من أعانه، ولا يغفل عن أن الأسباب البشرية نفسها من نعم الله. وفي هذا توازن بين الاعتراف بفضل الخالق وشكر المخلوق على إحسانه، من غير غلو في أحد ولا إنكار لحق أحد.

وهكذا يقرر الله سبحانه وتعالى أن النعمة الحقيقية ليست مجرد امتلاك أسباب الراحة، بل أن يهتدي الإنسان بها إلى معرفة المنعم، وأن يستقيم بها على أمره، وأن يتحول ما بين يديه إلى باب للرحمة والعدل والإحسان. فمن عرف النعمة ثم شكرها زادت صلته بربه، ومن عرفها ثم جحدتها فقد أضاع غايتها، وإن بقي منتفعًا بظاهرها. وليس المطلوب أن يعيش المؤمن في خوف دائم من زوال ما لديه، بل أن يعيش بين الحمد والعمل، وبين الرجاء والمسؤولية، مستحضراً أن كل نعمة أمانة، وأن أعظم الوفاء بها أن تُستعمل فيما يرضي الله.

وبذلك يهد هذا المقطع لما بعده من مشاهد القيامة والجزاء؛ فالذي أُمهل في عمره، ورُزق من الطيبات، ومُنح السمع والبصر والفؤاد، وأقيمت أمامه حجج التوحيد، لا يكون موقفه من هذه النعم أمرًا عابرًا، بل هو جزء من مسؤوليته أمام الله. وحين يأتي يوم القيامة، تتبين حقيقة ما قدمه الإنسان من شكر أو جحود، ومن طاعة أو إعراض. فالحياة التي امتلأت بآيات الرحمة والرزق ليست حياة بلا غاية، وإنما هي ميدان للابتلاء والعمل، والموفق من جعل نعم الله عونًا له على عبادته، لا حجابًا يصرفه عن ذكره.

المقطع السادس: البعث والجزاء والشهادة — من مجود النعمة إلى مواجهة الحساب (الآيات ٨٤-٨٩)

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَالْقَوَا إِلَى اللَّهِ يُؤْمِنُ السَّلَامُ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ٨٤-٨٩].

بعد أن عرض الله سبحانه وتعالى في المقطع السابق ألوأنا من نعمه على الإنسان، من الخلق والرزق والأسرة والعلم والمسكن والأمن، وختم ببيان حال من يعرف نعمة الله ثم ينكرها، ينتقل إلى مشهد اليوم الذي تنكشف فيه حقيقة المواقف، ويقف فيه الإنسان أمام عاقبة ما آمن به أو جحد، وما شكر عليه أو كفر به، وما استعمله في الطاعة أو سخره في المعصية. فالنعمة ليست عطاءً منفصلاً عن المسؤولية، والعمر ليس زمناً يمضي بلا غاية، والوحي ليس معرفة نظرية لا يترتب عليها حساب؛ بل إن كل ذلك يدخل في ابتلاء الإنسان، ويكون له أثر في مصيره الأخروي.

وهذا الانتقال ليس خروجاً عن موضوع النعم، بل هو استكمال له؛ لأن تمام فهم النعمة لا يتحقق إلا بإدراك الغاية التي من أجلها منح الله الإنسان ما منح، والحق الذي أوجبه عليه تجاه المنعم، والمآل الذي ينتهي إليه بعد انقضاء حياته. فإذا كان المقطع السابق قد كشف عن التناقض بين معرفة النعمة وإنكارها، فإن هذا المقطع يكشف عن عاقبة ذلك التناقض حين تنقطع أسباب التهرب، وتسقط الحجج الباطلة، ويظهر ما كان الإنسان يقدمه في الدنيا من إيمان وعمل.

يقول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾. يقرر الله سبحانه وتعالى أن يوم القيامة يوم بعث وشهادة، لا يترك فيه الناس بلا بيان لما فعلوا، ولا تضيع فيه أعمالهم من غير حساب. فلكل أمة رسول أقام الله به الحجة عليها، ويشهد الرسل على أممهم بما بلغوهم به من أمر الله، وبما كان من استجاباتهم أو إعراضهم. وليس المقصود أن الرسل يعلمون الغيب استقلالاً، وإنما يشهدون بما أطلعهم الله عليه، وما يتعلق بتبليغ الرسالة وأحوال أممهم وفق ما يأذن الله به.

وتنكير كلمة ﴿شَهِيدًا﴾ في هذا السياق يفيد عظم شأن هذه الشهادة، ويستحضر مقامها الذي تقوم فيه الحجة على الأمم. فالدعوة التي قد يستهين بها الناس في الدنيا، والرسالة التي قد يعرضون عنها أو يسخرون من أهلها، ستكون لها منزلتها في ميزان الله. ولن يكون السؤال حينئذ عما إذا كانت الرسالة قد وافقت أهواء الناس، بل عما إذا كانوا قد استجابوا للحق الذي بلغهم.

ثم يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾. أي لا يؤذن لهم في الاعتذار على الوجه الذي يرجون به دفع ما استحقوه، ولا يُهملون ليعودوا إلى الدنيا فيستدركوا ما فرطوا فيه. والاستعتاب طلب العتبي، أي طلب إزالة ما يوجب العتاب والعودة إلى ما يرضي؛ والمعنى أنهم لا يُمنحون فرصة جديدة يصلحون فيها أعمالهم بعد انقضاء زمن التكليف.

ولا يتعارض هذا مع ما ورد في آيات أخرى من أن أهل الموقف يتكلمون ويسألون ويجادلون؛ فالمشاهد الأخرى متعددة، وأحوال الناس فيها تتنوع، وهذه الآية تقرر انقطاع فرصة الاستدراك والرجوع إلى الدنيا، كما تبين ما يكون من الخذلان لمن قامت عليه الحجة وأصر على الكفر. فالمقام ليس مقام عمل جديد يبذل به الإنسان مصيره، بل مقام ظهور الحقائق ومجازاة العباد على ما قدموا.

وهنا تتجلى أهمية الوقت في حياة الإنسان. فالدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء، وما يستطيع المرء إصلاحه اليوم قد لا يجد سبيلاً إلى إصلاحه بعد الموت. وكَم من إنسان يؤجل التوبة، أو يؤخر رد المطالم، أو يستهين بالحقوق، كأنه يملك ضمناً بطول العمر وبقاء الفرصة؛ والقرآن يوقظ القلب من هذا الوهم، ويذكره بأن الإهمال في الدنيا ليس إهمالاً، وأن تأخر الجزاء لا يعني سقوطه.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾. والمراد بالذين ظلموا هنا الذين استحقوا العذاب بما ارتكبهوا من الكفر والشرك والجرائم التي توجب العقوبة، وفي مقدمتها ظلم الإنسان نفسه بالشرك بالله والإعراض عن رسالته. فإذا عاينوا العذاب الذي كانوا يكذبون به، لم يعد الإنكار الذي اعتادوه في الدنيا قادراً على دفعه، ولم يعد الاستهزاء بالوعيد سبيلاً للنجاة منه.

وقد جمع الله في هذه الآية بين أمرين: عدم تخفيف العذاب، وعدم الإنظار. فالأول ينفي عنهم ما يرجونه من تقليل العقوبة، والثاني ينفي تأخيرها عنهم بعد حلول وقتها. وفي ذلك تصوير لهول الموقف؛ إذ يواجه الإنسان عاقبة عمله من غير أن يملك الوسائل التي اعتاد في الدنيا أن يطلب بها التأجيل أو التخفيف. أما تفاصيل أحوال العذاب وكيفيةاته، فمرجعها إلى ما أخبر الله به ورسوله، ولا يصح أن يتوسع الإنسان في وصف الغيب بما لم يرد به دليل.

وليس المقصود من هذا الوعيد أن يبأس العبد ما دام في الدنيا، بل أن يبادر إلى التوبة قبل فوات أوانها. فالتحذير القرآني رحمة بالإنسان؛ لأنه يبين له خطورة الطريق قبل الوصول إلى نهايته. ومن عرف عاقبة الظلم أمكنه أن يتجنبه، ومن أدرك أن الحقوق لا تضيع عند الله سارع إلى ردها، ومن تذكر الحساب لم يجعل قدرته على الإفلات من العقوبة في الدنيا دليلاً على أنه بمنأى عن الجزاء.

ويظهر هنا اتصال هذا المقطع بما قبله؛ فقد ذكر الله في المقطع السابق نعمة السمع والبصر والأفئدة، وهي وسائل يتلقى الإنسان بها العلم ويفهم به الحجة، ثم يعرض عليه مشاهد

الحساب ليعلم أن هذه الوسائل لم تمنح عبثاً. فمن استعملها في معرفة الحق كان ذلك من أسباب نجاته، ومن عطلها عن الاعتبار، واتبع هواه مع قيام الدليل، فقد عرض نفسه للمساءلة. فالمسؤولية الأخروية مرتبطة بما وهبه الله للإنسان من قدرة على الإدراك والاختيار، وبما بلغه من هدى وبيان.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾. يكشف الله في هذا المشهد عن نهاية العلاقة التي أقامها المشركون بينهم وبين معبوداتهم الباطلة. فقد عبدوها في الدنيا، ورجوا منها النفع والشفاعة والقرب من الله، وربما دافعوا عنها، ووالوا عليها وعادوا، فإذا هم يوم القيامة يواجهونها عاجزة عن نصرهم، بل تنبرأ منهم وتكذب دعواهم.

وقولهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ﴾ ليس إقراراً بالتوحيد الذي ينفعهم، وإنما هو إظهار لما كانوا يعبدونه، وكشف عن حقيقة تعلقهم به. وفي قولهم هذا ما يشبه إلقاء التبعة على معبوداتهم، وكأنهم يريدون أن يبينوا أنهم لم ينشئوا هذه العلاقة من فراغ، بل اتخذوا تلك المعبودات شركاء ورجوها. غير أن مجرد الإقرار بما فعلوه لا يعفيهم من المسؤولية؛ لأنهم هم الذين اختاروا عبادتها، واتبعوا الباطل مع قيام الحجة عليهم.

ثم يقرر الله أن معبوداتهم تنبرأ منهم، فتقول: ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾. أي إن دعواكم أننا شركاء لله، أو أننا كنا نستحق العبادة، أو أننا أمرناكم بما كنتم تفعلون، دعوى باطلة. وقد تختلف حقيقة هذا التبرؤ باختلاف المعبودات؛ فالأصنام لا تنطق في الدنيا، والله قادر على أن يجعلها تتكلم يوم القيامة بما يشاء، أما من عُبد من دون الله من الملائكة أو الأنبياء أو الصالحين ممن لم يرضوا بعبادتهم، فيتبرؤون ممن عبدتهم. ويجمع هذه الصور أن كل معبود باطل لا يملك أن ينقذ عابده من حكم الله، وأن عبادة غير الله لا تتحول إلى حق لمجرد كثرة من اتبعها.

وهذه الآية تضع أمام الإنسان ميزانًا حاسمًا في باب الاعتقاد: ليست العبرة بما يعلقه الناس على المخلوقات من آمال، ولا بما ينسجون حولها من دعاوى، وإنما العبرة بما شرعه الله وأذن به. فكم من باطل يكتسب في أعين الناس قوة بسبب العادة أو الموروث أو الهيبة الاجتماعية، ثم ينكشف بطلانه حين توضع المعتقدات أمام ميزان الحق. وما كان في الدنيا قائمًا على الوهم والتقليد الأعمى لا يثبت أمام شهادة الله، ولا تنفع صاحبه كثرة الأتباع ولا شدة التعصب.

ولا يقتصر التحذير على عبادة الأصنام الظاهرة، بل يشمل كل صورة من صور صرف حق الله إلى غيره، مع مراعاة الفروق الشرعية بين الاعتقاد والعمل. فالعبادة حق لله وحده، أما محبة الصالحين واحترامهم والافتداء بهم فيما وافق الشرع، فليست من الشرك. وكذلك اتخاذ الأسباب المشروعة لا ينافي التوحيد؛ وإنما المحذور أن يمنح الإنسان مخلوقًا شيئًا من خصائص الألوهية، أو يتقرب إليه بعبادة لا يجوز صرفها إلا لله، أو يعتقد فيه استقلالًا بما لا يقدر عليه إلا الخالق سبحانه.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَالْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾. ومعنى إلقائهم السلم أنهم استسلموا وانقادوا لحكم الله حين ظهرت لهم الحقيقة وانقطعت أسباب المكابرة. ولم يعد في وسعهم دفع أمر الله أو الاعتراض على حكمه، بعد أن كانوا في الدنيا يجادلون في التوحيد، ويخاصمون الرسل، ويستكبرون عن قبول الحق.

أما قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، فيكشف سقوط ما اختلقوه من مزاعم حول شركائهم، وما ادعوه من شفاعات باطلة، وما بنوه من آمال على معبودات لا تملك لهم شيئًا. فالافتراء الذي كان يمنحهم شعورًا زائفًا بالأمان في الدنيا يتبدد حين يواجهون الحق. وهذا من أعظم ألوان الخسران: أن يكشف الإنسان في اللحظة التي يحتاج فيها إلى النجاة أن ما اعتمد عليه لم يكن سببًا لها، وأن ما دافع عنه وضحي من أجله لم يكن قائمًا على هدى من الله.

وفي ذلك تربية للمؤمن على مراجعة مصادر يقينه، فلا يكتفي بما ألفه المجتمع، ولا يجعل شيوخ القول دليلاً على صحته، ولا يسمح للعاطفة أو العصبية أن تحجب عنه الدليل. فالتوحيد لا يقوم على مجرد الاتناء، وإنما على معرفة الحق والإخلاص لله واتباع ما أنزل. ومن رحمة الله أن جعل للإنسان في الدنيا وقتاً يستطيع فيه أن يصحح معتقده، ويستغفر من ذنبه، ويتراجع عن الباطل؛ فلا ينبغي أن يفرط في هذه الفرصة حتى لا يكون استسلامه للحق يوم القيامة استسلاماً لا يملك معه استدراكاً.

ثم يبين الله سبحانه وتعالى أن المسؤولية لا تتوقف عند الكفر الشخصي، بل تتضاعف حين يقترن الكفر بصد الناس عن سبيل الله، فيقول: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾. فالذين كفروا بأنفسهم ثم سعوا إلى منع غيرهم من معرفة الحق، أو إبعاد الناس عن اتباع الرسل، أو إقامة العوائق أمام الدعوة إلى الله، جمعوا بين فساد الاعتقاد والإفساد في حياة الآخرين. ولهذا أخبر الله عن زيادة عذابهم فوق عذاب الكفر بسبب ما أضافوا إليه من صد عن سبيله.

والآية أصل في أن المسؤولية تتفاوت بحسب آثار العمل وامتداد ضرره. فمن وقع في المعصية تحمل تبعاتها، ومن دعا إليها أو زينها للناس أو استغل سلطانه لمنع الحق فقد أضاف إلى مسؤوليته مسؤولية أخرى. وليس المراد أن كل من خالف شخصاً في رأيه أو ناقشه في دعوته يكون صادّاً عن سبيل الله؛ فالصد المذموم هو منع الحق أو عرقلة الوصول إليه بغير حق، أو التضليل المتعمد الذي يحول بين الناس وبين الهدى. أما الحوار العلمي، وبيان الخطأ، ومناقشة الأدلة، فكل ذلك قد يكون من وسائل نصره الحق إذا التزم العدل والصدق.

ويشمل هذا المعنى من يستعمل المال أو النفوذ أو الإعلام أو التعليم لنشر الباطل وصرف الناس عن دين الله، كما يشمل من يصد الناس عن الحق بسوء الخلق أو التشدد بغير علم أو تقديم صورة مشوهة عن الدين. غير أن الحكم على الأعيان والأعمال يحتاج إلى علم وثبوت ومراعاة للشروط والموانع، فلا يجوز أن تتحول الآية إلى ذريعة لتكفير المخالفين أو

اتهامهم بغير بينة. والمقصود أن يدرك المؤمن خطورة أثره في الآخرين، وأن يعلم أن الكلمة قد تكون سبباً في هداية إنسان، كما قد تكون سبباً في إضلاله إذا قامت على الكذب والتضليل.

وفي هذا تذكير للدعاة والمربين وأصحاب المسؤوليات بأنهم لا يحملون مسؤولية ما يعتقدونه وحده، بل عليهم أن يتقوا الله فيما يوجهون إليه الناس. فمن كان في موقع تعليم أو قيادة أو تأثير، وجب عليه أن يجعل سلطته وسيلة للبيان والعدل، لا أداة لقمع الحق أو نشر الضلال. وكلما اتسع أثر الإنسان، ازدادت أهمية مراقبته لله في استعمال ما أعطي من قدرة وتأثير.

ثم يعيد الله ذكر الشهادة، فيقول سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾. وقد سبق أن أخبر الله ببعث شهيد من كل أمة، ثم عاد هنا إلى المعنى نفسه مع زيادة بيان يتعلق برسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم وشهادته على أمته. وهذا التكرار ليس تكراراً خالياً من الفائدة، بل يرسخ مركزية الشهادة في بناء الحجة الأخروية، ويصل بين مصير الأمم السابقة ومصير الأمة التي بعث فيها خاتم الرسل.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ يبين أن الشهداء الذين تقوم بهم الحجة على الأمم من جنس تلك الأمم، وقد بعث الله إليهم رسلاً يعرفون لغتهم وأحوالهم، ويبلغونهم ما أمرهم الله به. فليس للناس أن يحتجوا بأن الرسالة لم تصلهم على وجه البيان من غير تفصيل ينظر فيه بحسب أحوالهم؛ إذ إن الله يقيم حجته بالعدل، ولا يظلم أحداً. وقد جاء في القرآن أن الرسل مبشرون ومنذرون لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، والله أعلم بما قامت به الحجة على كل فرد.

أما قوله سبحانه: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾، ففيه تشريف للنبي صلى الله عليه وسلم وبيان لعظم أمانة الرسالة التي حملها. وقد فسر المفسرون المشار إليهم بـ﴿هَؤُلَاءِ﴾ بأقوال، منها أن المراد بهم أمته صلى الله عليه وسلم، وقيل غير ذلك بحسب ما يتصل

بالسياق. والمعنى العام أن الله يجعل رسوله شاهداً في مقام الشهادة الذي يليق به، وأن رسالته ليست دعوة عابرة، بل حجة قائمة على من بلغهم القرآن وقامت عليهم الحجة به.

ولا تعني شهادة النبي صلى الله عليه وسلم أنه يعلم الغيب استقلالاً أو يحيط بأعمال الخلق من ذاته، بل ما يشهده ويخبر به تابع لما أعلمه الله وأطلععه عليه. فالغيب لله سبحانه، ولا يعلم الرسول منه إلا ما أطلععه الله عليه. وهذا الضبط ضروري لفهم مقام النبوة على الوجه الذي يجمع بين تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم وإفراده بالعبودية لله، فلا يُرفع فوق منزلته التي أنزله الله إياها، ولا يُنتقص من مقامه الذي شرفه به.

وبعد تقرير الشهادة، يأتي البيان عن أعظم ما تقوم به الحجة على هذه الأمة، وهو الكتاب المنزل، فيقول الله تعالى: ﴿وَزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾. وهذا ختام بالغ الدلالة للمقطع؛ فبعد أن عرض الله مشاهد الحساب، وتبرؤ المعبودات الباطلة، وزيادة العذاب على من صد عن سبيله، يقرر أن الأمة لم تُترك في الدنيا بلا هداية، بل أنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم القرآن، وجعله بياناً لما تحتاج إليه البشرية في هدايتها وقيام دينها.

ومعنى ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أن القرآن يبين كل ما يحتاج إليه الناس في أصول الدين، وقواعد الهداية، وأحكام الشريعة، ومكارم الأخلاق، وأخبار الغيب التي أطلع الله عليها عباده، وما تقوم به الحجة عليهم. وليس المراد أن القرآن يشتمل على تفاصيل كل صناعة أو علم تجريبي أو جزئية من جزئيات الحياة بصيغتها الاصطلاحية الحديثة، بل إنه يتضمن أصول الهداية والحقائق والتوجيهات التي يحتاج إليها الإنسان في تحقيق الغاية التي خلق لها، وتأتي السنة النبوية بياناً وتفصيلاً لكثير من أحكامه، ويجتهد العلماء في استنباط ما تدل عليه النصوص وفق أصول العلم وقواعده.

فالقرآن كتاب هداية قبل كل شيء، ومن هدايته أنه يبين للإنسان حقيقة ربه، وحقيقة نفسه، وغاية وجوده، وميزان الخير والشر، وأصول العدل والرحمة، وحدود الحلال والحرام،

ومصير الإنسان بعد الموت. وهو لا يمنع من الاستفادة من العلوم والخبرات البشرية، ولا يدعو إلى ترك النظر في الكون أو تعطيل العقل، بل يوجه الإنسان إلى التفكير والاعتبار، ويقيم له الأصول التي تضبط غايته الأخلاقية والإيمانية. ومن الخطأ أن يُحتمل القرآن نظريات متغيرة أو تفاصيل لم يقصد بيانها، كما أن من الخطأ أن يُعزل عن توجيه الحياة بحجة أن موضوعه مقصور على العبادة الفردية.

وتتضح الصلة بين هذه الآية وما سبقها في أن الله لم يحاسب الإنسان على نعمة إلا وقد أقام له من أسباب المعرفة والهداية ما يناسب مسؤوليته. فقد منحه السمع والبصر والفؤاد، وسخر له ما ينفع به، وبعث إليه الرسل، وأنزل الكتب، وأقام الحجج على وحدانيته، ثم جعل له زمناً في الدنيا يستطيع فيه أن يتعلم ويعمل ويتوب. والقرآن هو الهداية التي تجمع هذه المعاني، وتكشف للإنسان كيف يحول النعمة إلى شكر، والعلم إلى بصيرة، والقوة إلى عدل، والرزق إلى إحسان، والعمر إلى عمل صالح.

ثم يصف الله كتابه بثلاثة أوصاف عظيمة: ﴿بَيِّنَاتًا﴾، و﴿هُدًى﴾، و﴿رَحْمَةً﴾، ويختم بقوله: ﴿وَيُشْرَىٰ لِّلْمُسْلِمِينَ﴾. فهو تبيان لما يحتاج إليه الناس من الحق، وهداية ترشدهم إلى الطريق المستقيم، ورحمة بما يشتمل عليه من التشريع الذي يصلح أحوالهم، ويزكي نفوسهم، ويحفظ مصالحهم، وبشرى لمن أسلم لله واستجاب لأمره بما وعد الله به أهل الإيمان والطاعة من الثواب والرضوان.

والرحمة هنا ليست مجرد شعور عاطفي، بل تظهر في الهداية التي تحرر الإنسان من عبودية الأهوام، وفي الأحكام التي تحفظ الحقوق، وفي الموازين التي تمنع الظلم، وفي التوجيهات التي تصلح علاقة الإنسان بربه وبنفسه وبالناس. فالقرآن يأمر بالعدل، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، ويدعو إلى الوفاء بالعهد والإحسان، ويبين للناس طريق التوبة والاستقامة. وكل ذلك رحمة؛ لأنه يخرج الإنسان من اتباع الهوى إلى نور الحق، ومن الفوضى الأخلاقية إلى المسؤولية، ومن الاستعباد للمخلوق إلى عبودية الخالق.

أما تخصيص البشارة بـ﴿الْمُسْلِمِينَ﴾، فيبين أن الانتفاع الكامل بهداية القرآن مرتبط بالاستسلام لله والإذعان لشرعه. والإسلام في هذا المقام ليس مجرد دعوى باللسان أو انتساب اجتماعي، بل يقوم على إخلاص العبادة لله، وقبول الحق، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، والعمل بما شرع الله بحسب الاستطاعة. ولا يعني ذلك أن المسلم معصوم من الخطأ أو أن كل عمل يصدر عنه موافق للقرآن، بل هو مطالب بمراجعة نفسه، وتصحيح مساره، والرجوع إلى هدى الله كلما أخطأ أو زل.

وهنا تبرز مسؤولية الأمة تجاه الكتاب المنزل؛ فليس من الوفاء بالقرآن أن يقتصر حضوره على التلاوة دون فهم، أو أن تُستحضر آياته في المناسبات ثم تُهمَل هداياته في واقع الحياة. وإنما يكون تعظيمه بتلاوته وتدبره، وتعلم أحكامه، والعمل بما دل عليه، والرجوع إلى السنة الصحيحة في بيان معانيه، وفهمه على أصول أهل العلم، مع تجنب تحميله الأهواء والآراء التي لا يدل عليها. وإذا كان القرآن نبيًا وهداية ورحمة، فإن من حقه على المؤمن أن يجعل له أثرًا في عبادته وأخلاقه ومعاملاته ومواقفه من العدل والظلم، ومن الحق والباطل، ومن الضعيف والقوي.

كما أن قوله تعالى: ﴿وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُسْلِمِينَ﴾ يفتح باب الرجاء بعد مشاهد الوعيد التي سبقت. فالقرآن لا يعرض مصير المكذابين ليرتك المؤمن في الخوف وحده، وإنما يجمع بين التحذير والبشارة، وبين بيان العقوبة الخفيفة لمن أعرض، وفتح طريق النجاة لمن استجاب. فالمؤمن يعيش بين الخوف والرجاء؛ يخاف التقصير والظلم، ويرجو رحمة الله ومغفرته، ويعلم أن طريق النجاة ليس بالأمني، بل بالإيمان والعمل الصالح والتوبة والإنابة.

ومن الهدايات العملية لهذا المقطع أن يستحضر الإنسان موقفه بين يدي الله عند اتخاذ قراراته، فلا يسأل فقط: هل أستطيع فعل هذا؟ بل يسأل أيضًا: هل يرضي الله هذا الفعل؟ وما أثره في حقوق الآخرين؟ وهل أستطيع أن ألقى الله به؟ فالمسؤولية الأخروية تغير طريقة النظر إلى النجاح والفشل، والربح والخسارة، والسلطة والمال؛ إذ لا تكون قيمة

العمل بما يحققه من منفعة عاجلة فحسب، بل بما يقوم عليه من حق وعدل، وبما يتركه من أثر، ويمدى موافقته لما أمر الله به.

ومنها كذلك أن يحرص المسلم على ألا يكون سببًا في صد الناس عن سبيل الله، وأن يجعل أثره في محيطه قائمًا على البيان الصادق والقدوة الحسنة. فرب كلمة يطلقها الإنسان بغير علم تضلل غيره، ورب موقف ظالم ينفر الناس من الحق الذي ينتسب إليه صاحبه، ورب عمل صالح يفتح للآخرين بابًا إلى الخير. وليس المقصود أن يحتمل المرء نفسه مسؤولية هداية الناس، وإنما أن يؤدي واجبه في البيان والعمل، ويترك نتائج القلوب إلى الله سبحانه وتعالى.

ومنها أن يربط الإنسان النعم التي يعيشها بالآخرة؛ فالصحة ليست غاية مستقلة، بل فرصة للعمل، والعلم ليس وسيلة للتفاخر، بل أمانة في البيان والنفع، والمال ليس معيارًا للكرامة، بل مسؤولية في الكسب والإنفاق، والمنصب ليس امتيازًا مطلقًا، بل تكليف بالعدل. وإذا تذكر المؤمن أن هذه النعم ستدخل في حسابه، لم يتعامل معها باستخفاف، ولم يظن أن ما يستطيع فعله بعيدًا عن أعين الناس يخرج عن علم الله.

وبذلك يؤدي هذا المقطع وظيفة محورية في البناء الكلي لسورة النحل؛ إذ ينقل الحديث عن النعم من مجال المعرفة والانتفاع إلى مجال الحساب والمسؤولية، ويكشف أن مجود النعم لا ينتهي عند خلل في الاعتقاد، بل يفضي إلى موقف أخروي تنكشف فيه الحقائق، وتنبأ فيه المعبودات الباطلة من عابديها، ويضعف فيه العذاب على من جمع بين الكفر وإضلال الآخرين. ثم يرد الله الناس إلى أصل الهداية التي أقام بها عليهم الحجة: القرآن الكريم، تبيانًا لما يحتاجون إليه، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين.

وعلى هذا، فإن المقصد الجامع للمقطع هو تقرير أن الإنسان مسؤول أمام الله عن موقفه من الحق والنعم، وأن قيام الحجة بالرسول والكتاب يجعل الإيمان والعمل والشكر واجبًا يترتب عليه الجزاء. فالدنيا دار إهمال لا دار إهمال، والقرآن هداية لا مجرد تلاوة، والنعمة

أمانة لا امتياز بلا حساب، والرسالة حجة ورحمة، والآخرة هي اليوم الذي تظهر فيه حقيقة ما اختاره الإنسان في حياته.

ومن وعى هذا المعنى لم ينتظر حتى تنكشف له الحقائق في الآخرة، بل بادر في الدنيا إلى تصحيح اعتقاده، وإخلاص عبادته، ورد المظالم، وحفظ حقوق الناس، واستعمال ما وهبه الله في الخير، والرجوع إلى القرآن والسنة في معرفة طريقه. وبذلك ينتقل الإيمان من التصديق المجرد إلى حياة مسؤولية، ويصبح تذكّر الآخرة قوة تدفع إلى الإصلاح، لا فكرة مؤجلة لا أثر لها في السلوك.

المقطع السابع: التوجيهات الأخلاقية والتشريعية — من الإيمان بالحق إلى إقامة العدل والوفاء بالعهد (الآيات ٩٠-١٠٠)

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي تَقْتَضِي عُزْلَاهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَكَاثًا تَتَخَذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبُلُوكمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُنَبِّئَنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَصُولُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَنَسْأَلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَخَذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا الشَّوْءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٠-١٠٠].

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى في المقطع السابق مشاهد البعث والجزاء، وأخبر عن شهادة الرسل على أممهم، وختم ببيان منزلة القرآن بوصفه هدى ورحمة وبشرى للمسلمين، ينتقل إلى بيان ما تقتضيه هذه الهداية في واقع الحياة. فالإيمان الذي لا يثمر عدلاً في المعاملة، وإحساناً في السلوك، ووفاء بالعهود، ومقاومة للظلم والفساد، إيمان لم تظهر آثاره العملية على الوجه الذي أمر الله به. والقرآن الذي جعله الله هداية للناس لا يقف أثره عند تصحيح الاعتقاد، بل يمتد إلى بناء الضمير، وتقويم السلوك، وضبط العلاقات، وإقامة حياة تقوم على العدل والرحمة والمسؤولية.

وهذا الانتقال متصل اتصالاً وثيقاً بما سبقه؛ فقد قرر الله أن الإنسان مسؤول عما قدم، وأن الكتاب المنزل حجة عليه، ثم جاء هذا المقطع ليبين جملة من معالم الاستجابة لهذه الحجة. فكأن الآيات تنقل المؤمن من مشهد الحساب الذي ينتظره إلى واجبات العمل التي يواجهها الآن؛ فلا ينتظر يوم القيامة ليعرف قيمة العدل، ولا يؤجل الوفاء حتى يرى عاقبة الغدر، ولا يكتشف يوم الجزاء أن الدنيا التي انشغل بها قد نفذت، وأن ما عند الله هو الباقي. وإنما يفقه ذلك في حياته، فيختار ما يرضي الله وإن خالف هواه، ويتمسك بالحق وإن قلّ أنصاره، ويصبر على الطاعة وإن دعت المصالح العاجلة إلى الانحراف.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. هذه الآية من أجمع آيات القرآن في تقرير أصول الأخلاق والشرائع؛ إذ جمعت ثلاثة أصول من الخير وثلاثة أصول من الشر، وربطت الأمر والنهي بمقصد التذكير والاعتاظ. وقد روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «إن أجمع آية في القرآن لخير أو لشر آية في سورة النحل» ثم تلا هذه الآية. وقد اشتهر استشهاد الخطباء والعلماء بها لما اشتملت عليه من قواعد جامعة في إصلاح الفرد والمجتمع. (ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة النحل، الآية ٩٠؛ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الآية نفسها).

ويبدأ الأمر بالعدل؛ لأن العدل أساس استقامة الحياة، وبه تحفظ الحقوق، وتستقيم الأحكام، وتُصان الكرامات، ويأمن الناس من جور الأقوياء وتعدي أصحاب النفوذ. والعدل هو إعطاء كل ذي حق حقه، ووضع الأمور في مواضعها، والحكم بين الناس بالحق من غير ميل إلى هوى أو عصبية أو مصلحة خاصة. وهو لا يقتصر على القضاء بين المتخاصمين، بل يدخل في علاقة الإنسان بأهله وأولاده، وفي معاملاته التجارية، وفي أداء الشهادة، وفي توزيع المسؤوليات، وفي تقويم الآخرين، وفي كل موضع يكون فيه للإنسان حق أو واجب تجاه غيره.

فالوالد مأمور بالعدل في معاملته لأولاده، وصاحب العمل مأمور بأداء حقوق العاملين، والتاجر مأمور بالصدق في البيع والشراء، والمسؤول مأمور بالآل يجعل منصبه وسيلة لتقديم أقرابه أو أصدقائه على أصحاب الاستحقاق. ومن العدل أن ينصف الإنسان من خالقه، وألا يحمل به بغضه لشخص على إنكار حقه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَاؤُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اغْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]. فالعدل في المنظور القرآني ليس امتيازاً يمنحه الإنسان لمن يحب، ولا حقاً يحتكره لمن ينتمي إليه، بل هو تكليف شرعي لا يسقط بسبب الخصومة أو الاختلاف.

وإذا كان العدل يمنع الظلم ويعيد الحقوق إلى أهلها، فإن الإحسان يرتقي بالإنسان إلى مرتبة أوسع من مجرد أداء الواجب؛ ولذلك قرن الله الأمر به بالأمر بالعدل، فقال: ﴿وَالْإِحْسَانُ﴾. فالعدل أن يؤدي الإنسان ما وجب عليه، والإحسان أن يزيد في الخير حيث يُشرع له ذلك، فيعفو عند القدرة، ويواسي المحتاج، ويحسن إلى من أحسن إليه، ويصلح ما استطاع إصلاحه، ويؤدي عمله بإتقان وأمانة. وقد يكون الإحسان في العبادة بإخلاصه لله ومراقبته سبحانه، وقد يكون في معاملة الناس بحسن القول، وكف الأذى، وبذل المعروف، وقد يكون في أداء المسؤوليات بإتقان يتجاوز مجرد التخلص من الواجب.

ولا يعني الإحسان إهدار الحقوق أو السكوت عن الظلم أو تمكين المعتدي من الاستمرار في عدوانه؛ بل إن من الإحسان منع الظلم، وإرشاد المخطئ، ورد الحقوق، ووضع العقوبة العادلة حيث يشرعها الله. فالرحمة التي لا يضبطها الحق قد تتحول إلى تفريط، والعدل الذي يخلو من كل معنى للإحسان قد يقف عند الحد الأدنى من أداء الواجب دون أن يفتح أبواب الإصلاح والتراحم. وقد جمع الله بينهما ليبني حياة لا تضع فيها الحقوق، ولا تحجب فيها مشاعر الرحمة.

ثم خص الله بالذكر ﴿وَإِيتَاءُ ذِي الْقُرْبَى﴾، مع أن الإحسان يشمل الأقارب وغيرهم؛ تنبيهاً إلى عظم حق القرابة، وإلى أن رابطة النسب تقتضي صلة وإحساناً ورعايةً في حدود الشرع والاستطاعة. فصلة الرحم ليست مظهرًا اجتماعيًا موسميًا، بل عبادة تتجلى في السؤال عن

الأقارب، ومواساة المحتاج منهم، وإعانة الضعيف، وإصلاح ذات البين، وحفظ الود ما لم يترتب على ذلك إعانة على معصية أو تمكين من ظلم.

ومن تمام الفقه في هذا الباب أن يُفترق بين الصلة الواجبة، والإحسان المستحب، وما يجب دفعه من الأذى عن النفس والأهل. فليس مطلوباً من المسلم أن يقبل الاعتداء المستمر بحجة صلة الرحم، وإنما يوازن بين أداء الحق المشروع وحماية نفسه من الضرر، ويطلب الإصلاح بالوسائل المشروعة. وقد تجتمع صلة الرحم مع وضع الحدود العادلة، كما قد يكون الإحسان إلى القريب بتوجيهه إلى الصواب ومنعه من التماهي في الخطأ.

وبعد أن جمع الله أصول الخير، نهى عن أصول الشر، فقال: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾. والفحشاء تشمل الأقوال والأفعال شديدة القبح، وفي مقدمتها ما فحش من المعاصي، كالفواحش التي تمس العفة والأعراض. والمنكر هو ما أنكره الشرع ونهى عنه، ويدخل فيه ما يخالف أمر الله من اعتقادات وأقوال وأعمال. أما البغي فهو مجاوزة الحد والتعدي على الحقوق، سواء وقع من فرد على فرد، أو من صاحب سلطة على من تحت مسؤوليته، أو من جماعة على جماعة.

ويكشف هذا الترتيب عن إحاطة التوجيه القرآني بمصادر فساد الحياة؛ فالفحشاء تفسد الأخلاق والعلاقات، والمنكر يخرج الإنسان عن حدود الشرع، والبغي يهدم العدل ويحوّل القوة إلى وسيلة للعدوان. وقد يقع البغي في صورة واضحة، كالاعتداء على المال أو النفس، وقد يأتي في صورة خفية، كالتلاعب بالحقوق، أو استغلال حاجة الناس، أو إساءة استعمال السلطة، أو تشويه سمعة إنسان بغير حق. ولهذا لا يكفي أن يتجنب المرء المعاصي التي تتعلق بحياته الخاصة، بل عليه أن يتحرى سلامة معاملاته، وألا يجعل قوته أو علمه أو ماله سبباً في إلحاق الضرر بالآخرين.

وفي جمع هذه الأوامر والنواهي دلالة على أن الأخلاق في الإسلام ليست مجالاً منفصلاً عن العقيدة والعبادة، بل هي من ثمار الإيمان ومقتضياته. فمن عرف أن الله هو الخالق

المنعم، وأنه سبحانه مطلع على أعمال عباده، وأنهم موقوفون بين يديه للحساب، لزمه أن يستقيم على أمره في السر والعلن. ومن ادعى الإيمان ثم تعمد ظلم الناس أو أكل حقوقهم، لم يجز له أن يحجج بعبادته لإسقاط حقوق المخلوقين؛ بل يجب عليه أن يتوب من ظلمه، وأن يرد المظالم إلى أهلها، وأن يصلح ما أفسده بقدر استطاعته.

ثم يقول الله تعالى: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. فالآية ليست مجرد قائمة من الأوامر والنواهي، وإنما هي موعظة من الله لعباده، تدعوهم إلى استحضار ما يعلمونه من الحق، والعمل بما تقتضيه معرفتهم. والتذكّر هنا يتضمن عودة القلب إلى ما غفل عنه، واستحضار العهد مع الله، ومراجعة السلوك على ضوء الوحي. فالإنسان قد يعرف أن الظلم قبيح، ثم يغلبه الهوى إذا تعلق الأمر بمصلحته؛ وقد يعلم أن الوفاء واجب، ثم يبحث عن مخرج حين تتغير الظروف. ومن هنا يحتاج إلى التذكير المستمر الذي يوقظ ضميره، ويعيد ترتيب أولوياته، ويمنعه من اتخاذ المنفعة العاجلة معياراً وحيداً للحكم على الأشياء.

ولهذا كانت هذه الآية أساساً صالحاً لإصلاح الأفراد والمجتمعات؛ إذ لا يبدأ الإصلاح الحقيقي بمجرد تغيير الشعارات، بل بتربية النفوس على العدل والإحسان، ومحاسبة مظاهر الفحشاء والمنكر والبغي، وإقامة الحقوق من غير محاباة. وإذا صارت هذه المعاني موازين حاضرة في التعليم والقضاء والأسرة والعمل والاقتصاد، ظهرت آثار الهداية القرآنية في حياة الناس، وتحولت الأخلاق من مواعظ يسمعونها إلى قواعد تحكم تصرفاتهم.

ثم ينتقل الله سبحانه وتعالى من الأمر الجامع بالأخلاق إلى واجب الوفاء بالعهد، وهو من أبرز التطبيقات العملية للعدل والأمانة، فيقول: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾. فالعهد في النصوص القرآنية ليس مجرد كلمات ينطق بها الإنسان ثم يتصرف بعدها وفق ما تمليه مصلحته، وإنما هو التزام ترتب عليه حقوق، ويكون الوفاء به من مقتضيات الإيمان والصدق.

ويدخل في عهد الله ما التزمه العبد من طاعته، وما أكده من المواثيق والأيمان المشروعة، كما يدخل في المعنى العام كل عهد صحيح لا يخالف شرع الله. فالإنسان قد يعاهد ربه على طاعة، وقد يخلف على أمر، وقد يرم عقدًا مع شخص أو مؤسسة، وقد يلتزم باتفاق مع جماعة؛ وكل ذلك يستدعي الصدق وحفظ الحقوق، مع مراعاة الأحكام الشرعية الخاصة بكل نوع من أنواع الالتزام. ولا يجوز أن يتخذ الإنسان اسم الله وسيلة لتضليل الناس أو استغلال ثقتهم ثم خيانتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْنَا اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ يذكر الإنسان بأن إشهاده الله على عهده ليس أمرًا شكليًا؛ فالله يعلم حقيقة ما أضمره، ويعلم ما أظهره، ولا تخفى عليه دوافع الوفاء أو النقص. وقد يستغل بعض الناس ثقة الآخرين، ويظن أن الوفاء لا يلزمه إذا أمكنه الإفلات من المحاسبة البشرية، لكن المؤمن يعلم أن غياب الرقيب من البشر لا يعني غياب الرقابة الإلهية، وأن العهد الذي قطعه لا يصبح هيئًا لمجرد أن صاحبه يستطيع إنكاره.

ويترتب على ذلك أن حفظ العهود من أسس الثقة الاجتماعية. فلا تستقيم تجارة إذا لم يأمن المتعاقدون الغدر، ولا يستقيم عمل إذا لم تحفظ الالتزامات، ولا تستقر الأسرة إذا صار الوعد فيها وسيلة للتلاعب، ولا تقوم علاقة عادلة بين الجماعات إذا استُبيحت المواثيق كلما تبدلت موازين القوة. وليس الوفاء مجرد فضيلة فردية، بل هو شرط لاستقرار المجتمع وحياة الحقوق، ولهذا شدد القرآن في النهي عن نقض العهد، وربط ذلك بعلم الله ومحاسبته.

ثم يضرب الله مثلًا بليغًا للتحذير من نقض العهود، فيقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَقَصَّتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَخَذُونَ آيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُغُهُمُ اللَّهُ بِهٖ وَلَيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾. وقد شبه الله نافضي العهود بامرأة تغزل خيطها حتى تحكم نسجه، ثم تعود فتنتقضه بعد أن صار قويًا، فتبدد ما بذلته من جهد وتعيده إلى حال التفكك. والمقصود تصوير قبح إفساد ما أُحْكِمَ بناؤه، لا مجرد وصف فعل المرأة؛ فالمثل يكشف عن التناقض بين إنشاء الالتزام ثم إبطاله، وبين بناء الثقة ثم هدمها.

وكلمة ﴿أَنكَأ﴾ تدل على ما نقض من الغزل بعد إحكامه، وفيها تصوير لحال العهد حين يُحوّل من رابط يجمع الأطراف إلى خيوط متفرقة لا تحفظ حقًا ولا تصون ثقة. وكذلك من يعاهد ثم ينقض، أو يخلف ليطمئن الناس إليه ثم يستعمل يمينه لخداعهم، يهدم بفعله ما بناه من الثقة، وقد يفسد علاقات استقرت على الأمانة مدة طويلة.

أما اتخاذ الأيمان ﴿دَخَلَا بَيْنَكُمْ﴾، فمعناه جعلها وسيلة للغش والخيانة والإفساد في العلاقات. وقد ذكر الله من دوافع هذا السلوك أن تكون أمة أكثر عددًا أو قوة أو منفعة من أمة أخرى، فيميل أصحاب العهد إلى الطرف الأقوى طلبًا لمكسب عاجل، وينقضون ما التزموه حين يرون أن الغدر سيعود عليهم بفائدة أكبر. فالمشكلة ليست في تغير الظروف وحده، وإنما في جعل المصلحة العاجلة مبررًا لإهدار الحق.

وهنا يضع القرآن مبدأ أخلاقيًا عظيمًا: لا تُقاس صحة العهد بمدى الرجح الذي يحققه لصاحبه، ولا يُسمح للقوة بأن تجعل الحيانة مقبولة. فقد تتغير المصالح، وتبديل موازين النفوذ، وتظهر فرص أكثر ربحًا، لكن ذلك لا يبيح نقض الالتزامات الصحيحة من غير مسوغ شرعي. وإذا اقتضت الظروف إنهاء اتفاق أو تعديله، وجب سلوك الطريق المشروع الذي يحفظ الحقوق ويمنع الغدر، لا اتخاذ الأيمان ستارًا لخداع الطرف الآخر.

ويُستفاد من الآية أصل عام في الوفاء بالاتفاقات والمواثيق، لكن تنزيله على العقود المعاصرة يحتاج إلى معرفة طبيعة كل عقد وشروطه والأحكام المتعلقة به. فقد يطرأ ما يجيز فسخ العقد أو تعديله، وقد توجد شروط معتبرة أو أعذار شرعية، فلا يصح الحكم بأن كل إنهاء لعلاقة تعاقدية هو نقض محرم. وإنما المذموم هو الغدر المتعمد، واتخاذ اليمين وسيلة للخداع، والتخلي عن الحقوق والالتزامات لمجرد ظهور مصلحة أقوى مع عدم وجود مسوغ معتبر.

ثم يبين الله حقيقة الابتلاء في هذا الباب، فيقول: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكمُ اللَّهُ بِهِ﴾. أي إن الله يختبركم بما أمركم به من الوفاء، وما يعرض لكم من اختلاف المصالح وتفاوت القوة والفرص. فالابتلاء لا يكون بالمصائب وحدها، بل قد يكون في المكاسب التي يستطيع الإنسان تحصيلها

بالغدر، وفي الفرص التي تتيح له أن يظلم من ائتمنه، وفي المواقف التي لا يراه فيها أحد من البشر. عندئذ تظهر حقيقة التقوى: هل يلتزم الإنسان بالحق حين يكون الوفاء مكلفاً، أم يلتزمه فقط ما دام يوافق مصلحته؟

ويختم الله الآية بقوله: ﴿وَلَيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾. ففي الدنيا قد تتنازع الجماعات في تفسير العهد، وقد يتخذ كل طرف لنفسه مبررات يراها مقنعة، وقد تختلط الحقيقة بالدعاية والمصلحة. أما يوم القيامة فيفصل الله بين عباده بالحق، ويظهر ما خفي من النيات والأعمال، ويجازي كل نفس بما كسبت. وليس معنى ذلك أن الإنسان معذور في الدنيا عن التحري والعدل، بل هو مأمور أن يجتهد في معرفة الحق وأن يحتكم إلى الدليل والشرع، مع علمه بأن الحكم النهائي لله وحده.

ثم يقرر الله سبحانه وتعالى أصلاً عقدياً يتصل بالهداية والاختيار، فيقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. فاختلاف الناس في الإيمان والكفر ليس خارجاً عن مشيئة الله وقدره، ولو شاء سبحانه لجعل الناس جميعاً على حال واحدة لا يختلفون فيها. لكنه سبحانه اقتضت حكمته أن يبتليهم، ويقيم عليهم الحجة، ويأمرهم بالإيمان والطاعة، ويبين لهم طريق الهدى، ثم يجازيهم على أعمالهم.

ولا يجوز فهم قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ على أنه إكراه للعباد على الكفر من غير ذنب، أو أن الإنسان لا مسؤولية له عن اختياراته. فالله سبحانه خالق العباد وأفعالهم، وكل شيء يقع بمشيئته، وهو مع ذلك حكيم عادل لا يظلم أحداً، وقد بعث الرسل وأنزل الكتب وأقام الحجة. والعبد له إرادة ومشية حقيقتان تحت مشيئة الله، ويختار أفعاله ويحاسب عليها، كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (سورة تيسر) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿[التكوير: ٢٨-٢٩]. فإثبات مشيئة الله لا يلغي مسؤولية الإنسان، وإثبات مسؤولية الإنسان لا يخرجها عن سلطان ربه ومشيئته. (ابن

تجيمية، مجموع الفتاوى، مباحث القدر؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة النحل، الآية ٩٣).

ويجيء ختام الآية حاسماً: ﴿وَلْتَسْأَلْ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. فبعد تقرير المشيئة الإلهية، يثبت الله مسؤولية العباد عن أفعالهم. وهذا الجمع يمنع طرفين من الانحراف: طرفاً يجعل القدر ذريعة لترك العمل والتوبة، وطرفاً يتوهم أن الإنسان مستقل عن ربه في وجوده وقدرته ومشيبته. والمؤمن يعلم أن الهداية فضل من الله يستوجب الشكر، وأن الضلال لا يبرر الإعراض عن الحق، وأن عليه أن يأخذ بأسباب الهدى، ويجاهد نفسه، ويستعين بالله، ولا ينجح بالقدر على معصيته.

ومن الهدايات العملية هنا ألا يجعل الإنسان اختلاف الناس سبباً لترك الدعوة إلى الحق أو اليأس من الإصلاح؛ فالله أمر بالبيان، والرسول أدوا رسالاتهم، والعباد مسؤولون عن أعمالهم، أما هداية التوفيق فمن الله سبحانه. وعلى المسلم أن يجمع بين بذل السبب والتوكل، وبين الرحمة بالناس والثبات على الحق، وألا يتجاوز ما أمر به إلى الحكم على سرائر العباد ومصائرهم.

ثم يعود الله إلى التحذير من الأيمان التي تتخذ وسيلة للغدر، فيقول: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَرِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا الشَّوْءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. وتكرار النهي عن اتخاذ الأيمان دخلاً ليس تكراراً خالياً من المقصد؛ فقد جاء أولاً في سياق تشبيه ناقضي العهد بمن تنقض غزلها بعد إحكامه، ثم عاد هنا ليعين عاقبة هذا السلوك على صاحبه وعلى المجتمع الذي يعيش فيه.

وقوله تعالى: ﴿فَتَرِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ تصوير لما يحدث حين يفقد الناس الثقة بالعهود التي كانت تثبت بها علاقاتهم. فالقدم التي استقرت على أرض ثابتة تكون أقرب إلى الزلل إذا انهار موضع ثباتها؛ وكذلك المجتمع الذي يقوم على الصدق والوفاء قد يضطرب إذا اعتاد أفرادُه نقض المواثيق والغدر بالآخرين. وقد تكون آثار هذا الانحراف أوسع من الخلاف

الأول: إذ يؤدي الغدر إلى انتشار الشك، وتراجع الثقة، وتعطل التعاون، وربما دفع المظلوم إلى ردود أفعال تزيد النزاع اشتعالاً.

أما قوله تعالى: ﴿وَتَذَرُهُمُ الشُّرُوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فيبين أن الغدر قد يتجاوز كونه معصية فردية إلى أن يصبح سبباً في صد الناس عن دين الله. فإذا رأى الناس من ينتسب إلى الإيمان يستحل الخيانة ويخلف العهد، فقد يسيئون فهم الدين بسبب سلوكه، ويضعف اطمئنأهم إلى دعوته. وهذا لا يغير حقيقة الإسلام، لكنه يكشف عن خطورة التناقض بين الدعوة إلى الحق والعمل بخلافه. فالمؤمن ليس معصوماً من الخطأ، لكن عليه إذا أخطأ أن يتوب ويصلح، لا أن يجعل الانتساب إلى الدين غطاءً لسوء المعاملة.

وفي هذا تحذير بالغ لكل من يتصدر للدعوة أو التعليم أو الإصلاح الاجتماعي: إن الوفاء بالوعد، وأداء الحقوق، والصدق في المعاملة، ليست أموراً ثانوية يمكن إهمالها مع كثرة الحديث عن الفضائل؛ بل هي من أهم الشواهد العملية على صدق الالتزام بالدين. وقد يكون حسن الخلق والوفاء سبباً في فتح القلوب للحق، بينما يؤدي الغدر والكذب إلى تنفير الناس وإضعاف الثقة بمن يدعوهم إلى الله.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. وهذا نهى عن أن يجعل الإنسان عهد الله وسيلة لتحصيل منفعة عاجلة، فيبيع التزامه بالحق مقابل مال أو منصب أو نفوذ أو رضا الناس. ووصف المقابل بأنه ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لا يعني أن كل منفعة دنيوية قليلة في ذاتها، وإنما يعني أنها مهما عظمت في نظر صاحبها فإنها لا تساوي ما يفوته من رضوان الله وثوابه إذا ضحى بالحق من أجلها.

وقد يدخل في هذا المعنى من يكذب في شهادته ليحصل على مال، أو ينتقض اتفاقاً صحيحاً طمعاً في ربح أكبر، أو يخفي الحق خوفاً على منصب، أو يغير حكماً شرعياً إرضاءً لصاحب نفوذ. غير أن تطبيق الحكم على الوقائع المعينة يحتاج إلى معرفة تفاصيلها، وتمييز ما هو عهد

واجب الوفاء بما يجوز تعديله أو إنهاؤه شرعاً. والمقصود الأصيل هو تحريم اتخاذ ما أوجبه الله ذريعة إلى الكسب المحرم، أو التضحية بالحق طلباً لمنفعة زائلة.

ثم يبين الله سبب ترجيح الوفاء على المكاسب العاجلة، فيقول: ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. فالموازن تختلف باختلاف أفق الإنسان؛ فمن حصر نظره في اللحظة الراهنة رأى أن الغدر قد يحقق له ربحاً، وأن الصدق قد يجرمه فرصة، وأن الوفاء قد يكلفه مالأً أو مكانة. أما من نظر إلى الدنيا والآخرة معاً، علم أن ما عند الله خير وأبقى، وأن سلامة الدين والذمة أعظم من منفعة يحصل عليها الإنسان بظلم غيره.

ولهذا يبيح البيان القرآني الذي يحسم المقارنة بين الزائل والباقي، فيقول الله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. فكل ما يملكه الإنسان في الدنيا معرض للنفاذ؛ المال ينقص، والمنصب يزول، والقوة تضعف، واللذة تنتهي، والسمة تتغير. أما ما أعده الله للمؤمنين من الثواب والنعيم، وما يكتبه لهم من الأجر على الطاعة والصبر، فباقي لا ينقطع.

ولا يدعو هذا المعنى إلى احتقار الدنيا أو ترك عمارتها، بل إلى وضعها في منزلتها الصحيحة. فالدنيا مزرعة الآخرة، والمال قد يكون وسيلة للخير، والمنصب قد يكون مجالاً لإقامة العدل، والعلم قد يكون طريقاً إلى نفع الناس؛ وإنما المذموم أن تتحول هذه النعم إلى غايات تُطلب ولو على حساب الحق. والمؤمن ينتفع بما أباح الله له، ويعمل لإصلاح حياته، لكنه لا يجعل المكسب العاجل مبرراً لمعصية الخالق أو انتهاك حقوق المخلوقين.

ويخص الله الصابرين بالذكر؛ لأن الوفاء بالحق قد يكون شاقاً حين تتعارض الأمانة مع المنفعة. فالصبر هنا يشمل الثبات على الطاعة، والامتناع عن المعصية، واحتمال ما يترتب على الصدق والوفاء من مشقة. وقد يرفض الإنسان ربحاً محرماً فيفوته مال، أو يلتزم بالحق فيخسر رضا صاحب نفوذ، أو يؤدي الأمانة في وقت يستطيع فيه الاستيلاء على ما ليس له؛ وهذه كلها مواقف يظهر فيها صدق الصبر والإيمان.

وقوله تعالى: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يدل على فضل الله في الجزاء، وأنه يجزي عباده الصابرين على أحسن أعمالهم، ويتفضل عليهم بالثواب. ولا ينبغي أن يفهم منه أن الله يضع شيئاً من أعمالهم الصالحة؛ فقد قال سبحانه: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧]. فكل خير يعلمه الله محفوظ، والجزاء يجري على عدله وفضله، ولا يظلم سبحانه أحداً.

ثم يقرر الله قاعدة واسعة في ثواب العمل الصالح، فيقول: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاتًا طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. وفي هذه الآية تقرير لمعيار الكرامة عند الله، وهو الإيمان والعمل الصالح، لا مجرد الجنس أو النسب أو الثروة أو المنزلة الاجتماعية. فالمرأة والرجل يشتركان في أصل التكليف، ويشتركان في وعد الله بالثواب متى تحقق الإيمان والعمل الصالح، كلٌّ بحسب ما أوجبه الله عليه وما أذن له فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ يبين أن العمل الصالح في معناه الشرعي مرتبط بالإيمان بالله والإخلاص له واتباع ما شرعه. فلا يكفي أن يكون العمل نافعاً في ظاهره إذا خلا من أصل الإيمان الذي تقوم عليه النجاة الأخروية، كما لا يكفي ادعاء الإيمان مع الإعراض عن مقتضياته العملية. والعمل الصالح هو ما وافق شرع الله، وكان صاحبه مخلصاً لله فيه، متبعاً لهدي رسوله صلى الله عليه وسلم.

أما ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاتًا طَيِّبَةً﴾، فقد تنوعت أقوال المفسرين في تفسير الحياة الطيبة؛ فقيل هي الرزق الحلال، وقيل القناعة، وقيل السعادة والطمأنينة، وقيل تشمل ذلك كله. وهذه المعاني متقاربة من جهة أنها تصف حياة يجد فيها المؤمن طيب العيش بما يمنحه الله من هداية وقناعة وبركة ورضا، وإن لم تخلُ من ابتلاء أو مرض أو فقر أو حزن. والأقرب أن اللفظ يتسع لمجموع وجوه الخير التي تطيب بها حياة المؤمن في الدنيا، ولا ينحصر في صورة واحدة من صور الرزق أو الشعور النفسي. (الطبري، جامع البيان، تفسير سورة النحل، الآية ٩٧؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الآية نفسها؛ السعدي، تفسير الكريمة الرحمن، تفسير الآية نفسها).

فالحياة الطيبة ليست وعدًا بأن المؤمن لن يمرض، أو لن يحزن، أو لن يواجه ظلمًا، وإنما وعد بأن الإيمان والعمل الصالح يمنحانه أساسًا من الهداية والرضا والرجاء يعينه على التعامل مع تقلبات الحياة. فقد تضيق به أسباب العيش، لكنه يعلم أن رزقه بيد الله، وأن الحرام ليس طريقًا مشروعًا للخروج من الضيق. وقد يفقد عزيزًا، لكنه يرجو لقاءه في رحمة الله إن كان من أهل الإيمان. وقد يصبر على ظلم وقع عليه، فيطلب حقه بالوسائل المشروعة، ولا يسمح للظلم أن يحوله إلى ظالم مثله.

وهنا تتضح الصلة بين الحياة الطيبة والوفاء بالعهد؛ فرما يتوهم الإنسان أن الكذب والغدر أسرع إلى تحقيق الاستقرار والرخ، لكن الله يربط الخير الحقيقي بالإيمان والعمل الصالح والصبر. وليس معنى ذلك أن كل مستقيم سيحصل في الدنيا على وفرة المال أو المكانة الاجتماعية، بل قد يُبتلى المؤمن بضيق الرزق، كما قد يُوسَّع على غيره؛ وإنما الفارق أن الحياة الطيبة تقوم على معنى أعمق من كثرة الممتلكات، وأن الجزاء الكامل محفوظ عند الله في الآخرة.

كما تكشف الآية عن قيمة العمل الصالح في بناء المجتمع؛ إذ لا يقتصر أثره على نجاة الفرد، بل يظهر في الأمانة والصدق والرحمة والإتقان وحفظ الحقوق. فحين يؤمن الناس بأن الله يحاسبهم على أعمالهم، ويعلمون أن الطيب من العيش مرتبط بالاستقامة لا بمجرد المكاسب، تزداد فرص الثقة والتعاون، ويقل الاستعداد للغش والاعتداء، وتصبح الأخلاق جزءًا من بنية الحياة اليومية لا مجرد شعارات.

وبعد أن قرر الله أن القرآن هدى ورحمة، وأن الوفاء والصبر والعمل الصالح من مقتضيات الإيمان، يوجه نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إلى أدب عظيم يتعلق بتلاوة القرآن، فيقول سبحانه: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾. فالقرآن أعظم ما يتلقى به الإنسان هداية الله، والشيطان عدو يسعى إلى صرفه عن الانتفاع بهذه الهداية، بإلقاء الوسواس، وتشيت القلب، وإثارة الشبهات، أو دفع الإنسان إلى الغلو أو التقصير.

ولهذا شرع الله الاستعاذة به سبحانه عند قراءة القرآن، طلباً للحماية من وسوسة الشيطان وإغوائه.

والاستعاذة هي الالتجاء إلى الله والاعتصام به من شر الشيطان، ومعنى ﴿الرَّحِيمِ﴾ المطرود المبعد عن رحمة الله. وفي اختيار هذا الأدب قبل القراءة تربية للمؤمن على أن الانتفاع بالوحي يحتاج إلى قلب يقبل الهدى، ويستعين بالله على دفع ما يحول بينه وبين الفهم والعمل. فالإنسان قد يسمع الآيات، لكنه ينشغل عنها بهواجسه، أو يقرأ الوعيد ثم يأمن من عاقبته، أو يقرأ الأمر بالعدل ثم يتبع هواه عند الخصومة. والاستعاذة تذكير له بأن يطلب من الله الحفظ من العدو الذي يزين الباطل ويثقل الطاعة ويصد عن سبيل الحق.

وقد اختلف الفقهاء في حكم الاستعاذة قبل القراءة بين القول بالوجوب والقول بالاستحباب، والجمهور على أنها مستحبة، وليست من آيات القرآن المتلوة، وإنما هي ذكر مشروع قبل القراءة. والأصل أن يأتي بها القارئ قبل شروعه في التلاوة، امتثالاً للأمر الوارد في الآية، وقد ذكر العلماء تفصيلات تتعلق بحال القراءة داخل الصلاة وخارجها. (القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تفسير سورة النحل، الآية ٩٨؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الآية نفسها).

ولا ينبغي أن تتحول الاستعاذة إلى لفظ يقال باللسان ثم يصر الإنسان على الأسباب التي تفتح أبواب الوسوسة والانحراف. بل من تمام الاستعاذة بالله أن يأخذ العبد بالأسباب المشروعة، فيحفظ لسانه، ويتبعد عن مواطن الفتنة، ويطلب العلم الذي يدفع الشبهات، ويجاهد نفسه على الطاعة، ويكثر من ذكر الله. فالاستعاذة عبادة، والاستقامة على مقتضاها عمل، وكلاهما من أبواب الاعتصام بالله.

ثم يطمئن الله المؤمنين إلى أن الشيطان لا يملك سلطاناً مستقلاً عليهم، فيقول: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾. والمراد أن الشيطان لا يملك حجة تلزم

المؤمن بالباطل، ولا قدرة مستقلة على إكراهه على الكفر أو سلبه اختياره، وإنما يدعو ويوسوس ويزين، ويستغل مواطن الضعف والغفلة. وقد أخبر الله عن الشيطان يوم القيامة أنه يقول لأتباعه: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]. فسلطانه قائم على الدعوة والإغواء، أما الاستجابة فهي فعل العبد الذي يحاسب عليه.

ويجمع الله في هذه الآية بين الإيمان والتوكل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾. فالإيمان يثبت القلب على الحق، والتوكل يربطه بالله في طلب العون والثبات. وليس التوكل تركاً للأسباب أو استسلاماً للضعف، بل هو اعتماد القلب على الله مع القيام بما شرعه من أسباب الهداية والحماية. فالمؤمن يتعلم، ويجاهد نفسه، ويتبعد عن مواطن الفتنة، ثم يعلم أن التوفيق والثبات من الله، فيسأله العون ولا يغتر بقوته.

وفي هذا المعنى تصحيح لفهم شائع يجعل مقاومة الشيطان أمراً غامضاً منفصلاً عن الحياة اليومية. فالوسوسة قد تبدأ بتزيين كذبة صغيرة، أو تسويق تأخير التوبة، أو إقناع الإنسان بأن مصلحته تبرر نقض عهده، أو دفعه إلى اليأس بعد خطأ وقع فيه. ومقاومة ذلك تكون بالاستعاذة والذكر والعلم والتوبة والصحبة الصالحة ومحاسبة النفس، مع عدم الاستسلام للوساوس أو تحويلها إلى ذريعة لترك العمل الصالح.

ثم يختم الله هذا المقطع بقوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾. أي إن الشيطان يجد سبيلاً إلى الإغواء والتأثير في الذين يتخذونه ولياً مطاعاً، ويستجيبون لدعوته، ويتبعون ما يزينه لهم من الكفر والمعاصي. وليس معنى ذلك أن كل مؤمن لا يتعرض للوسوسة، أو أن وقوع المسلم في معصية واحدة يخرج من الإيمان؛ فالوسوسة قد تعرض للمؤمن، وقد يضعف فيقع في ذنب، ثم يتوب ويرجع إلى الله. وإنما الفارق بين من يجاهد الشيطان ومن يتولاه أن الأول يقاوم إغواءه ويستعين بالله، والثاني يرضى بطريقه ويتبعه ويستجيب له على وجه الإصرار والاتباع.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ يشير إلى الذين يجعلون طاعة الشيطان واتباعه طريقاً إلى الشرك بالله، أو يقرنون عبادة الله بعبادة غيره. ولا يجوز أن يُجعل كل وقوع في معصية شركاً أكبر؛ فالشرك له معاني وأحكام وتفصيلات شرعية، ويجب التفريق بين الشرك الأكبر والأصغر، وبين الكفر والمعصية، وعدم إطلاق الأحكام على الأعيان بغير علم. والمقصود أن طاعة الشيطان حين تقود إلى مخالفة أمر الله والإعراض عن توحيده تصح من أعظم أبواب الخسران.

وبذلك يتضح أن ختام المقطع بالاستعاذة من الشيطان ليس انتقالاً بعيداً عن موضوع الأخلاق والعهود، بل هو بيان لأحد أهم أسباب الانحراف عنها. فالذي يزين للإنسان نقض العهد، ويؤن عليه الظلم، ويغريه بالمكاسب المحرمة، هو عدو يسعى إلى إبعاده عن طاعة الله. وقد بدأ المقطع بالأمر بالعدل والإحسان، ثم أكد الوفاء بالعهود، ويتن أن الدنيا فانية وأن ما عند الله باقٍ، ووعد المؤمنين العاملين بالحياة الطيبة، ثم أرشد إلى الاستعاذة بالله من الشيطان الذي يصد عن هذه الطاعات.

وهكذا تتكامل حلقات البناء في هذا المقطع: فالإيمان يثمر العدل، والعدل يصون الحقوق، والإحسان يوسع دائرة الخير، والوفاء يحفظ الثقة، والصبر يعين على الثبات حين تتعارض الطاعة مع المصلحة العاجلة، والعمل الصالح يثمر الحياة الطيبة، والاستعاذة والتوكل يعينان على مقاومة أسباب الانحراف. فليست هذه المعاني فضائل متفرقة، وإنما هي منظومة متكاملة تصوغ شخصية المؤمن، وتبني مجتمعاً يحكمه الحق، وتوجه الإنسان إلى ما ينفعه في دنياه وآخرته.

ومن الهدايات العملية لهذا المقطع أن يجعل المسلم العدل ميزاناً في معاملاته، فلا يحايي قريباً ولا يظلم خصماً، وأن يرفع الإحسان من سلوكه إلى مستوى العادة الراسخة، وأن يحفظ عهوده وأيمانه، فلا يجعلها أدوات للتلاعب أو تحصيل المنافع. وعليه أن يزن مكاسبه بميزان الحلال والحرام، وأن يصبر إذا كان الوفاء مكلفاً، مستحضراً أن ما عند الله خير وأبقى. كما ينبغي له أن يراجع نفسه في أثر سلوكه على الآخرين، فلا يكون سبباً في تشويه الدين

أو صد الناس عن سبيل الله، وأن يجعل الاستعاذة بالله والتوكل عليه من أسباب الثبات على الحق.

وعلى مستوى المجتمع، تدعو الآيات إلى بناء ثقافة عامة تُحترم فيها العقود، وتُصان فيها الأمانات، ويُحاسب فيها المعتدي وفق العدل، وتُحمى فيها حقوق الضعفاء، ولا تُبرر فيها الخيانة باسم المصلحة أو القوة أو تغير الظروف. كما تدعو إلى أن تكون الدعوة إلى الله قائمة على الصدق والرحمة وحسن المعاملة، وأن يلتزم القائمون على الإصلاح بما يدعون إليه؛ لأن صلاح الوسائل جزء من صلاح الغايات، ولأن هداية القرآن لا تظهر آثارها الكاملة إلا حين تتحول إلى سلوك يُرى في حياة الناس.

وبذلك يؤدي هذا المقطع وظيفة محورية في البناء الكلي لسورة النحل؛ إذ يحول تقرير النعم والوحي والبعث إلى برنامج عملي للحياة، ويبين أن شكر الله لا يقتصر على الاعتراف بفضلها، بل يتحقق بإقامة العدل، والإحسان إلى الخلق، وصلة الأقارب، واجتناب الفواحش والمنكرات، والوفاء بالعهود، والصبر على الطاعة، والاستعاذة بالله على مقاومة الشيطان. فبعد أن أقام الله الحجة على الناس بنعمه وآياته وكتابه، يبين لهم كيف تكون الاستجابة لهذه الحجة في واقع الأخلاق والمعاملات.

والمقصد الجامع لهذا المقطع هو أن الإيمان الحق يتحول إلى التزام عملي بأمر الله، يظهر في العدل والإحسان والوفاء والصبر والعمل الصالح، وأن صلاح الفرد والمجتمع لا يستقيم مع الغدر والظلم واتباع الهوى، بل يقوم على مراقبة الله، والاعتصام به، وطلب ما عنده من الخير الباقي. فمن أراد الحياة الطيبة فليلتزم أسبابها فيما شرعه الله، وليعلم أن طاعة الله قد تكلفه شيئاً من حظوظ الدنيا، لكنها لا تضيع عنده، وأن كل عهد يحفظه ابتغاء مرضاته، وكل ظلم يمتنع عنه، وكل حق يؤديه، وكل عمل صالح يخلص فيه، هو مما يرجو به لقاء ربه بقلب سليم.

المقطع الثامن: مواجهة شبهات المكذبين حول الوحي، وبيان حقيقة الإيمان والإكراه، وعاقبة الإعراض عن الآخرة

الآيات (١٠١-١١١)

قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٠٥﴾ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ إِلَّا مِنْ أَكْثَرِ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صُدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ لَنْ يَسْمَعُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَزَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [النحل: ١٠١-١١١].

بعد أن قرر الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة جملة من التوجيهات الأخلاقية والتشريعية التي تنظم حياة المؤمن، يعود سبحانه إلى قضية الوحي؛ لأن استقامة العمل لا تنفصل عن صحة الاعتقاد، وصحة الاعتقاد لا تنفصل عن التسليم لله فيها أنزل. فالمؤمن الذي يتلقى أمر الله بالعدل والإحسان والوفاء بالعهد يحتاج إلى أن يستقر في قلبه أن هذا الوحي حق، وأن ما يشرعه الله لعباده قائم على علمه وحكمته، وأن اختلاف الأحكام في بعض مراحل التنزيل لا يقدر في صدق الرسالة، بل يجري وفق علم الله بما يصلح عباده في الأوقات والأحوال المختلفة.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾. فالآية تشير إلى اعتراض المشركين على ما يقع من نسخ بعض الأحكام أو إنزال آية في موضع آية، فاتخذوا اختلاف الحكم في بعض مراحل التشريع ذريعة للطعن في الرسول صلى الله عليه وسلم، وزعموا أنه يختلق القرآن من عند نفسه. وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أن النسخ يجري بعلمه، فقال: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾؛ فهو سبحانه العليم بما يصلح عباده، الحكيم في تشريعه، لا ينزل حكماً إلا بعلم، ولا يشرع أمراً إلا لحكمة، ولا ينسخ حكماً إلا وفق ما تقتضيه حكمته البالغة. وليس النسخ تناقضاً في علم الله أو تغييراً في حكمته، وإنما هو انتقال من حكم شرعي إلى حكم آخر في الوقت الذي أراده الله، وفق ما سبق في علمه واقتضاه حكمته. ومن هنا يتبين الفرق بين التبديل الذي ينشأ عن الجهل أو التردد، وبين النسخ الذي يقع بأمر الله وعلمه؛ فالأول نقص، والثاني تشريع محكم تجري أحكامه وفق الحكمة الإلهية. وقد اتفق علماء المسلمين على وقوع النسخ في الشريعة، مع اختلافهم في بعض الأمثلة والتفاصيل، ولا يصح إثبات النسخ في آية بعينها إلا بدليل معتبر يقتضي تعذر الجمع بين الحكيمين أو يثبت انتقال الحكم من مرحلة إلى أخرى (الطبري، جامع البيان، تفسير النحل: ١٠١؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تفسير الآية؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، تفسير الآية).

وتكشف هذه الآية عن أصل مهم في فهم الشريعة: أن المسلم لا يجعل محدودية علمه ميزاناً للحكم على حكمة الله. فقد يرى الإنسان حكماً في مرحلة، ثم يرى حكماً آخر في مرحلة لاحقة، فيتوهم التعارض لأنه ينظر إلى كل حكم منفصلاً عن زمنه ومقصده. أما المؤمن فيعلم أن الله هو الذي خلق الإنسان، وهو أعلم بما يصلحه، وأن واجبه هو طلب الفهم الصحيح، ورد المتشابه إلى الحكم، والتمييز بين ما ثبت بالدليل وما لا يزال محل اجتهاد. وهذا لا يلغي النظر العقلي، بل يضعه في موضعه الصحيح؛ فالعقل يعين على فهم الدليل، لكنه لا يحيط بعلم الله ولا يستقل بالحكم على مقاصد تشريعه.

ثم يرد الله سبحانه وتعالى على اتهام المشركين ببيان مصدر القرآن وحقيقته ووظيفته، فيقول: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾. وروح القدس هو جبريل عليه السلام، الذي نزل بالقرآن من عند الله، لا من عند بشر يعلم الرسول ما يقول. وتقديم قوله ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ يقرر أن مصدر الوحي هو الله سبحانه وتعالى، وأن جبريل عليه السلام مبلغ أمين لما أوحاه الله، وأن النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم رسول يتلقى الوحي ويبلغه كما أمر. أما قوله ﴿بِالْحَقِّ﴾ فيجمع معاني الصدق والثبات والعدل والحكمة؛ فالقرآن حق في مصدره، وحق في أخباره، وحق في أحكامه، وحق فيما يدعو إليه من توحيد الله وإقامة العدل وإصلاح الحياة.

ولم يجعل الله سبحانه وتعالى غاية إنزال القرآن مجرد إقامة الحجة على المكذبين، بل جعل له أثرًا مستمرًا في بناء المؤمنين وتثبيتهم، فقال: ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾. فالقرآن يثبت القلب على الحق حين تتراحم الشبهات، ويثبت الإرادة حين تشتد الشهوات، ويثبت المؤمن على الطاعة حين تتكاثر دواعي الانحراف، ويمنحه من البصيرة ما يعينه على التمييز بين الحق والباطل. وليس التثبيت مجرد شعور عابر بالسكينة، بل هو رسوخ في الاعتقاد، واستقامة في السلوك، وصبر على مقتضيات الإيمان، وثبات أمام الضغوط التي تريد صرف الإنسان عن دينه.

ثم يجمع الله سبحانه وتعالى أثر القرآن في قوله: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾؛ فهو هدى يكشف طريق الحق، وبشرى تفتح للمؤمن آفاق الرجاء في رحمة الله وثوابه. ومن هنا فإن صلة المسلم بالقرآن لا ينبغي أن تقتصر على التلاوة المجردة عن الفهم والعمل، كما لا ينبغي أن تتحول دراسته إلى معرفة ذهنية لا تغير أخلاقه وقراراته. إن القرآن يهدي من يتدبره إلى معرفة ربه، ويعلمه كيف يزن المواقف، ويضبط علاقاته، وبواجه الظلم، ويصبر على الابتلاء، ويوازن بين مطالب الدنيا وحقوق الآخرة. وكلما ازداد المؤمن فهمًا لكتاب الله، ازداد احتياجه إلى هدايته، لا استغناء عنها؛ لأن العلم الصحيح يورث التواضع لله، ويزيد صاحبه حرصًا على الاستقامة.

ثم ينتقل البيان الإلهي إلى شبهة أخرى أثارها المشركون، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾. فقد زعموا أن بشرًا يعلم النبي صلى الله عليه وسلم القرآن، فأبطل الله سبحانه وتعالى دعواهم ببيان التفاوت الظاهر بين لسان من نسبوا إليه التعليم، وهو أعجمي، وبين القرآن الذي جاء بلسان عربي مبين. والمراد بالأعجمي هنا غير العربي اللسان، وقد اختلفت الروايات في تعيين الشخص الذي أشارت إليه الآية؛ فلا يصح الجزم باسم معين من غير تثبت، كما أن تعيينه ليس ضروريًا لفهم الحجة التي أقامتها الآية.

إن القرآن الذي تحدى العرب في فصاحته وبيانه، وجاء بما تضمنه من العقائد والتشريعات والأخبار والهداية، لا يفسر صدوره بمجرد دعوى أن شخصًا أعجمي اللسان علمه للنبي صلى الله عليه وسلم. فلو كان ذلك الشخص هو مصدر هذا القرآن، لكان من حق المعارضين أن يبينوا كيف أمكنه أن ينتج هذا البيان العربي المحكم، وأن يأتي بهذا البناء العقدي والتشريعي، وأن يجيب عن قضايا الرسالة التي واجهت النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه. أما مجرد الإشارة إلى احتمال التعلم من بشر، من غير دليل يثبت ذلك، فليس برهانًا، وإنما هو اتهام يراد به إسقاط الحجة من غير مناقشة مضمونها.

وتدل الآية كذلك على أن الحق لا يُعرف بالدعاوى التي يطلقها الخصوم، بل بالنظر في الأدلة ووزن الأقوال بميزان العلم. وهذه قاعدة يحتاج إليها المسلم في زمن كثرت فيه الاتهامات المتبادلة، وصارت بعض الشبهات تنتشر لمجرد تكرارها، لا لقوة ما تستند إليه. فلا يجوز أن يقابل المسلم كل شبهة بافعال مجرد، ولا أن يسلم لها لمجرد تداولها، بل يتعلم كيف يميز بين السؤال الذي يطلب الحقيقة، والاعتراض الذي يبحث عن ذريعة للرفض، وكيف يجيب بالعلم والعدل، بعيدًا عن الظلم والتسرع.

وبعد إبطال دعوى مصدر القرآن، يقرر الله سبحانه وتعالى قاعدة تتعلق بموقف الإنسان من آياته، فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. فالهداية إلى الحق فضل من الله سبحانه وتعالى، وقد جعل لها أسبابًا شرعية، من أعظمها طلب

الحق، والإقبال على الوحي، والتجرد من الهوى، وقبول الدليل عند ظهوره. أما من يعرض عن آيات الله عنادًا واستكبارًا، ويصر على رد الحق بعد قيام حجته، فإنه يحرم التوفيق الذي يناله من أقبل على الله صادقًا. وليس في الآية ما يسوغ للإنسان أن يتخذ القدر ذريعة لتترك الإيمان أو العمل؛ لأن القرآن نفسه يدعو إلى النظر والتدبر والاستجابة، ويبين له عاقبة الإعراض.

ثم يرد الله سبحانه وتعالى على اتهام النبي صلى الله عليه وسلم بالافتراء، فيقول: ﴿إِنَّمَا يَقْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾. فالمفترقون هم الذين ينسبون إلى الله ما لم يقله، أو يردون الحق بدعاوى لا تقوم على برهان، لا الرسول الذي عرفه قومه بالصدق والأمانة، وجاءهم بالوحي الذي يقيم الحجة عليهم. وفي هذا الرد إظهار للتناقض في موقف المشركين؛ فهم يرمون الرسول بالكذب من غير دليل، مع أن القرآن يوجههم بالحجة ويدعوهم إلى البرهان.

ولا تعني الآية أن كل من وقع في الكذب خارج من الإيمان، أو أن كل كافر يتصف بكل صورة من صور الكذب؛ وإنما تتناول الافتراء على آيات الله في سياق الرد على اتهام الرسول صلى الله عليه وسلم. وهي في الوقت نفسه تحذر من خطورة الكذب في الدين، ولا سيما نسبة الأحكام والأقوال إلى الله بغير علم. فمن أعظم الأمانة أن يثبت الإنسان فيما ينقله عن الوحي، وألا يجعل رأيه الشخصي حكمًا شرعيًا، وألا ينسب إلى الله ما لم يثبت أنه من دينه. فكما أن الطعن في الوحي بغير حجة ظلم، فإن الكلام على الله بغير علم من أخطر أبواب الانحراف.

ثم تبلغ الآيات ذروة دلالتها التربوية والفقهية حين تنتقل من جدل المشركين حول الوحي إلى بيان حقيقة الإيمان عند التعرض للإكراه، فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. تفرق الآية بين من يتلفظ بكلمة الكفر تحت إكراه معتبر مع بقاء قلبه مطمئنًا بالإيمان، وبين من يقبل الكفر باختياره، وينشرح له صدره، ويؤثره على

الإيمان. فليس الحكم على الإنسان متعلقًا بمجرد صورة القول الظاهرة في كل حال، بل لا بد من مراعاة ما اعتبره الشرع من الإكراه والقصد والاختيار، مع ضبط ذلك بأحكام الشريعة لا بمجرد الدعوى.

وقد نزلت هذه الآية في سياق ما تعرض له بعض المسلمين الأوائل من التعذيب والاضطهاد، واشتهر في كتب التفسير ارتباطها بحال عمار بن ياسر رضي الله عنه، الذي تعرض للإكراه على إظهار ما لا يرضاه قلبه. وتذكر الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم أرشده إلى ما يطمن به قلبه، فنزلت الآية في بيان حكم المكره الذي لم ينشرح صدره بالكفر. وأصل الاستثناء في الآية ثابت الدلالة، أما تفاصيل بعض الروايات وألفاظها فتحتاج إلى التمييز بين ما صح منها وما ورد بأسانيد متفاوتة القوة (الطبري، جامع البيان، تفسير النحل: ١٠٦؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الآية؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تفسير الآية).

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ أصل في اعتبار الإكراه في هذا الباب، لكنه ليس إذنًا عامًا بالتفريط في الدين عند كل ضغط أو مشقة. فقد فرقت الشريعة بين الإكراه الذي يبلغ حدًا معتبرًا، وبين الخوف العادي أو الرغبة في تحصيل مصلحة دنيوية. كما أن تفاصيل أحكام الإكراه تختلف باختلاف المسألة، ونوع الضرر، وقدرة الشخص على الامتناع، وما إذا كان الفعل متعلقًا بحقوق الآخرين. لذلك لا يصح تنزيل الحكم على الوقائع المعاصرة بمجرد التشابه الظاهري، بل لا بد من معرفة حقيقة الإكراه وشروطه وموانعه، والرجوع إلى أهل العلم فيما يشته به من الحالات.

وتظهر رحمة الشريعة في أنها لا تكلف الإنسان بما يعجز عن احتماله، ولا تسوي بين من اختار الكفر راضيًا به، ومن أكرهه على كلمة لا يعتقدها قلبه. لكنها في المقابل تشدد على خطورة الانقلاب عن الإيمان اختياريًا، حين يقول سبحانه: ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾. فالانحراف هنا ليس مجرد زلة لسان تحت تهديد، وإنما انفتاح القلب على الكفر وقبوله ورضاه به. وبهذا يتبين أن الإيمان ليس مظهرًا اجتماعيًا فحسب، ولا كلمة تقال

باللسان من غير صلة بالقلب، بل هو اعتقاد وقول وعمل، وله مقتضيات تظهر في مواقف الابتلاء والاختيار.

ثم يكشف الله سبحانه وتعالى عن الدافع الذي أفضى بأصحاب هذا الموقف إلى الخسران، فيقول: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾. فالاستحباب هنا هو الإثارة والتقديم؛ أي إنهم قدموا ما يجدونه من مصالح الدنيا العاجلة على ما يعلمون أو تقوم عليهم الحجة في وجوبه من الإيمان بالآخرة. وهذا لا يعني أن حب الحياة الدنيا في ذاته مذموم، أو أن المسلم مأمور بترك عمارة الأرض والانتفاع بما أحل الله، وإنما المذموم أن تتحول الدنيا إلى معيار أعلى من أمر الله، فيبيع الإنسان دينه ليحفظ مآلاً، أو يترك الحق ليحصل على منزلة، أو يرضى بالباطل خوفاً على مصلحة زائلة.

إن الآية تضع الإنسان أمام سؤال حاسم: ما الذي يحكم اختياراته حين تتعارض مصلحة عاجلة مع أمر الله؟ فقد يكون الانحراف في صورة تنازل يبدو صغيراً، ثم يتكرر حتى يصبح عادة، وقد يبدأ بتبرير باطل من أجل منفعة، ثم ينتهي إلى الرضا به والدفاع عنه. ومن هنا كانت التربية القرآنية تربية على ترتيب الأولويات، بحيث ينتفع المؤمن بالدنيا من غير أن يجعلها غايته العليا، ويطلب الرزق والنجاح والمكانة من غير أن يتخذها مبرراً لترك واجب أو ارتكاب محرم. فالدنيا في ميزان الوحي ميدان للعمل والابتلاء، والآخرة هي دار الجزاء والاستقرار.

ويقول الله تعالى بعد ذلك: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (سورة النور) وَأُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ. فالطبع على القلوب والأسعاع والأبصار عقوبة يقرها الله سبحانه وتعالى في حق من أصروا على الكفر والإعراض، حتى حرموا الانتفاع بأسباب الهداية التي عرضت عليهم. وليس المراد أنهم فقدوا أصل الإدراك الحسي، بل أنهم لم ينتفعوا بما وهبهم الله من وسائل المعرفة في قبول الحق: يسمعون الحجج ولا يعتبرون، ويرون الآيات ولا يتفكرون، ويدركون ما يواجمهم من دلائل ثم يقدمون الهوى عليها.

وفي هذا تحذير بالغ من أن يتكرر الإعراض حتى يألفه القلب، فيضعف إحساسه بخطر المعصية، ويجد لنفسه الأعذار كلما دعي إلى مراجعة موقفه. فالغفلة ليست دائماً جهلاً بالمعلومة؛ فقد يعرف المرء الحق ثم يشغله عنه الحرص على الدنيا، وقد يسمع الموعدة مراراً من غير أن يسمح لها بأن تغير سلوكه. ولذلك لا يكفي أن يتعرض الإنسان للعلم، بل يحتاج إلى قلب يقبل الحق، ونفس تحاسب نفسها، وعمل يصدق ما عرفه من الهدى. ومن رحمة الله بعبده أن يبادر إلى التوبة متى تنبه إلى تقصيره، وألا يستسلم للغفلة أو يظن أن تكرار الذنب يمنعه من الرجوع إلى ربه.

ثم يقرر الله سبحانه وتعالى النتيجة النهائية لهذا المسار، فيقول: ﴿لَا جَزَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾. و«لا جرم» تفيد تأكيد الأمر وتحقيقه؛ أي إن خسارتهم في الآخرة نتيجة حقيقية لما اختاروه من الكفر والإعراض حتى ماتوا عليه. وقد يخسر الإنسان في الدنيا مآلاً أو منصباً أو مكانة، ثم يعوض بعض ما فاتته، أما الخسران الآخروي فهو فقدان النجاة والثواب بسبب الإصرار على ما يوجب العقاب. وفي المقابل، لا يزن المؤمن نجاحه بما يحققه من مكاسب عاجلة وحدها، بل ينظر إلى أثر اختياراته في دينه ومصيره، ويعلم أن ما يفوته من الدنيا مع ثباته على الحق أهون مما يخسره إذا باع آخرته بعرض زائل.

غير أن هذا المقطع لا يقف عند بيان الوعيد، ولا يجعل الحديث عن الفتنة والإكراه باباً لليأس؛ بل يفتح باب التوبة والرجاء لمن رجع إلى الله، فيقول سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. فالذين تعرضوا للفتنة في دينهم، ثم هاجروا ابتغاء مرضاة الله، وجاهدوا وصبروا على مقتضيات الإيمان، لم يغلق الله سبحانه وتعالى أمامهم باب المغفرة، بل أخبر عن سعة مغفرته ورحمته. وتذكر كتب التفسير أن الآية تتناول من فتنوا عن دينهم ثم تابوا ورجعوا إلى الحق، كما قيل في ارتباطها بالمؤمنين الذين عانوا الاضطهاد في مكة فهاجروا وجاهدوا وصبروا. والعبرة بعموم اللفظ فحين تحققت فيه أوصافه، مع مراعاة سياق الآية وأسباب نزولها الثابتة (ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير النحل: ١١٠؛ الطبري، جامع البيان، تفسير الآية).

وتأمل هذا الترتيب القرآني الدقيق: ﴿هَاجِرُوا﴾، ثم ﴿جَاهِدُوا﴾، ثم ﴿صَبِرُوا﴾. فالهجرة تقضي مفارقة البيئة التي تحول بين المرء وبين دينه متى وجدت الهجرة المشروعة وتحققت شروطها، والجهاد يدل على بذل الجهد في نصرة الحق بحسب ما شرعه الله، والصبر هو القوة التي تحفظ المؤمن على طريق الطاعة وتعينه على تحمل المشاق. ولا يلزم من ذلك أن كل فتنة تستوجب هجرة مكانية، أو أن كل جهاد في الآية ينحصر في صورة واحدة؛ فتزيل هذه المعاني على الوقائع يتطلب مراعاة أحكام الشريعة وظروف الناس ومقاصد الأعمال.

وفي الجمع بين الوعيد والمغفرة تربية متوازنة للنفس المؤمنة؛ فلا تأمن مكر الله فتستبين بالانحراف، ولا تياس من رحمته فتستسلم للذنب. من أخطأ فباب التوبة مفتوح، ومن تعرض للفتنة فله أن يستعيد ثباته، ومن ضعف في موقف فليس له أن يجعل ضعفه قدراً لا يتغير، بل عليه أن يصحح مساره يأخذ بأسباب الإيمان. والمغفرة في الآية ليست وعداً لمن أصر على الباطل بلا توبة، وإنما هي بشارة لمن رجع إلى الله وجاهد وصبر، مع بقاء الحكم النهائي للأفراد إلى الله سبحانه وتعالى، العالم بالسرائر والأعمال.

ثم تختم الآيات هذا المقطع بمشهد القيامة الذي يعيد جميع القضايا السابقة إلى ميزانها النهائي، فيقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. ففي ذلك اليوم ينشغل كل إنسان بنفسه، ويبحث عما يدفع به عن نفسه تبعه ما قدم، وتنكشف له حقيقة ما كان يقدمه من أعذار في الدنيا. أما الله سبحانه وتعالى فيحكم بين عباده بالعدل، ويوفي كل نفس جزاء عملها، فلا يضع إحسان محسن، ولا يحمل إنسان وزر غيره، ولا يعاقب أحد بغير استحقاق، ولا تنقص من حق أحد حسنة.

وتظهر الصلة بين هذه الخاتمة وبداية المقطع؛ فقد اعترض المشركون على الوحي، واتهموا الرسول صلى الله عليه وسلم بالافتراء، ثم بين الله سبحانه وتعالى أن مصدر القرآن هو الوحي الحق، وأن موقف الإنسان منه يحدد طريقه، وأن الإكراه لا يساوي الاختيار، وأن إشار الدنيا على الآخرة قد يقود إلى الكفر والخسران، وأن التوبة والصبر يفتحان باب المغفرة. ثم يأتي مشهد القيامة ليقرر أن هذه المواقف ليست مسائل نظرية منفصلة عن مصير

الإنسان، بل هي اختيارات يحاسب عليها كل فرد. وما يملكه المرء في الدنيا من قدرة على الجدل والتبرير لن يحول دون ظهور حقيقة عمله حين يقضي الله بين عباده.

ومن هنا تتجلى المسؤولية الفردية في أعرق صورها: لا يكفي أن ينتسب الإنسان إلى جماعة تؤمن بالحق، ولا أن يرفع شعارات صحيحة، ولا أن يلقي تبعة أخطائه على بيئته أو ظروفه؛ بل عليه أن ينظر في اختياراته، ويحاسب نفسه على ما يعتقد ويقول ويعمل. وفي الوقت نفسه لا يجوز أن يتحول هذا المعنى إلى تجاهل لظروف الإكراه والاضطهاد؛ فالقرآن نفسه فرق بين المكره الذي يطمئن قلبه بالإيمان، وبين من يختار الكفر ويرضاه. وبذلك يجتمع العدل الإلهي مع المسؤولية الإنسانية: لكل حالة حكمها، ولكل عمل جزاؤه، والله سبحانه وتعالى لا يظلم أحداً.

وهكذا يؤدي هذا المقطع وظيفة محورية في البناء العام لسورة النحل؛ فبعد أن عرضت السورة دلائل التوحيد وآيات النعمة، ثم وجهت المؤمنين إلى العدل والإحسان والوفاء، جاءت هذه الآيات لتؤكد أن الوحي هو المرجع الذي تنتظم به العقيدة والتشريع والسلوك، وأن الاعتراضات المثارة حوله لا تسقط حجته، وأن موقف الإنسان منه يكشف حقيقة ما يقدمه على رضا الله. ثم ربطت الآيات بين الاعتقاد والاختيار، وبين الاختيار والمصير، وبين التحذير من الكفر وفتح باب التوبة للمؤمنين الذين ثبتوا بعد الفتنة.

إن الرسالة الإيمانية لهذا المقطع أن القرآن ليس كتاباً يتلى بمعزل عن معارك الإنسان الداخلية والخارجية؛ إنه هدى يثبت صاحبه حين تضطرب المواقف، ويعلمه كيف يميز بين الحق والباطل، وكيف يحفظ دينه حين يتعرض للضغط، وكيف يراجع نفسه إذا ضعف، وكيف يوازن بين مطالب الدنيا وحقوق الآخرة. ومن أراد الثبات فليجعل القرآن مرجعاً لفهمه واختياره، وليتعلم أحكام دينه من مصادرها الموثوقة، وليقاوم الغفلة بالمحاسبة والتدبر، وليصبر على الحق من غير ظلم ولا اعتداء، وليبادر إلى التوبة كلما تبين له خطؤه؛ فإن الله سبحانه وتعالى وعد أهل الإيمان بالهداية والتثبيت، وفتح للمذنبين باب المغفرة والرحمة، وجعل الفصل الأخير بين عباده يوم القيامة قائماً على العدل الذي لا يظلم أحداً.

المقطع التاسع: القرية التي كفرت بأنعم الله، وتصحيح مفهوم الحلال والحرام، والتمهيد للاقتداء بإبراهيم عليه السلام

الآيات (١١٢-١١٩)

قال الله تعالى:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِنْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا يِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا يُصِفُ اللَّهُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِيَتَفَرَّقُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يَفْلَحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْتَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَاقٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾ [النحل: ١١٢-١١٩].

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى في المقطع السابق حقيقة الوحي، وكشف مواقف المكذبين منه، وفتح بين من يختار الكفر راضياً به ومن يقع تحت الإكراه وقلبه مطمئن بالإيمان، ينتقل سبحانه إلى مثل يكشف مصير المجتمعات التي تنعم بالأمن والرزق ثم تقابل إحسان الله بالجحود، ويعقب ذلك بتصحيح التصورات الفاسدة في باب الحلال والحرام، ثم يفتح باب التوبة لمن أساء ورجع وأصلح. وهكذا تتصل هذه الآيات بما قبلها اتصالاً وثيقاً؛ فالإيمان ليس مجرد تصديق ذهني، والشكر ليس مجرد اعتراف بالنعمة، بل هما حقيقة تظهر في سلوك الفرد والجماعة، وفي طريقة تلقي الوحي، وفي الالتزام بما أحل الله وحرم.

يقول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾. يقرر الله سبحانه وتعالى مثل قرية اجتمعت لها أسباب الاستقرار ورغد العيش؛ فأهلها آمنون على أنفسهم، مطمئنون في حياتهم، يأتيتهم رزقهم واسعاً من جهات متعددة، فلا يهددهم الخوف في أصل معاشهم، ولا يضيق عليهم الرزق حتى يضطروا إلى طلب ضروريات الحياة بشق الأنفس. واختيار وصفي ﴿آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ يجمع بين جانين متكاملين: الأمن من المخاوف التي تهدد الحياة، والطمأنينة التي تستقر بها النفوس وتنظم بها شؤون المجتمع. أما قوله ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ فيصور سعة النعمة وتنوع أسبابها، حتى كأن الرزق يأتيها من الجهات جميعاً، فيجد أهلها من موارد العيش ما يحقق لهم الكفاية والسعة.

وقد ذكر المفسرون أن المثل قد ينطبق على مكة، لما كانت تتمتع به من أمن ومكانة، ولما كان يأتيها من الأرزاق ما تحتاج إليه، مع أن أرضها ليست من أكثر الأراضي خصوبة. وذهب بعض أهل التفسير إلى أنه مثل لقرية تحققت فيها هذه الصفات، والعبرة لا تتوقف على تعيينها؛ لأن الله سبحانه وتعالى ساق المثل ليقرر سنة تتجاوز مكاناً بعينه، وهي أن الأمن والرزق من أعظم النعم التي تستقيم بها حياة الناس، وأن وجودهما لا يضمن بقاءهما إذا قابل الناس فضل الله بالجحود والعصيان. وتعيين مكة قول له وجهه في السياق، لكن لا ينبغي الجزم به على أنه المعنى الوحيد الذي تخمله الآية ما لم يقم دليل قاطع على الحصر (الطبري، جامع البيان، تفسير النحل: ١١٢؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تفسير الآية؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، تفسير الآية).

ثم يأتي التحول الحاسم في المثل، فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَكَفَّرْتُ بِآثَمِ الْكُفْرِ﴾. لم تكن المشكلة في قلة الموارد، ولا في انعدام الأمن، ولا في حرمان أهل القرية من أسباب الحياة، وإنما كانت في موقفهم من النعم التي أسبغها الله عليهم. والكفر هنا يشمل جحود النعمة وعدم القيام بحقوقها، ويدخل فيه ما كان من الكفر بالله وتكذيب رسوله بحسب ما بينه السياق.

فبدل أن تقودهم النعم إلى معرفة المنعم وشكره وطاعته، تحولت إلى أسباب غفلة حين انفصل الانتفاع بها عن الاعتراف بحق الله فيها.

وتنبّه صيغة الجمع في ﴿بِأَنْعَمِ اللَّهُ﴾ إلى أن النعمة ليست أمرًا واحدًا معزولاً؛ فالأمن نعمة، والرزق نعمة، والاستقرار نعمة، وتبشير أسباب المعاش نعمة، واجتماع هذه النعم وتكاملها نعمة أخرى. وقد يألف الإنسان ما يتكرر عليه حتى لا يشعر بقيمته، فلا يعرف حقيقة الأمن إلا حين يختل، ولا يدرك قيمة الرزق إلا حين يضيق، ولا يستحضر فضل العافية إلا حين يبتلى بفقدائها. ومن هنا يري القرآن المؤمن على ألا يجعل دوام النعمة سبباً للغفلة عنها، بل يحول الاعتياد إلى شكر متجدد، والانتفاع إلى عبادة، والقدرة إلى مسؤولية.

والشكر الذي يقتضيه هذا المقام أوسع من كلمات الحمد التي تجري على اللسان، وإن كانت من أعظم أبوابه؛ فهو اعتراف القلب بفضل الله، وثناء اللسان عليه، واستعمال النعمة في طاعته، والقيام بحقوقها. فمن شكر نعمة المال أن يكتسبه من الحلال ويؤدي الحقوق الواجبة فيه، ومن شكر نعمة الأمن أن يحفظ الحقوق ويكف الأذى وقيم العدل، ومن شكر العلم أن يعمل به وينفع الناس، ومن شكر السلطة أن يجعلها وسيلة لإحقاق الحق لا باباً للظلم. أما أن يستمتع المجتمع بالنعمة ثم يجعلها أداة للفساد والعدوان، فذلك مناقض للغاية التي ينبغي أن تؤدي إليها النعمة.

ثم يبين الله سبحانه وتعالى عاقبة هذا الجحود بقوله: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾. لم يأت التعبير عن الجوع والخوف بوصفها حادثتين عابرتين، بل جاء تصويرهما في صورة لباس يحيط بأهل القرية ويلازهم؛ لأن اللباس يحيط بالإنسان من جهاته، وكذلك إذا استحكم الجوع والخوف في مجتمع، صاراً حالاً عامة تؤثر في مختلف جوانب الحياة، وتفقد الناس الشعور بالاستقرار الذي ألفوه. وأصل الذوق إدراك الشيء ومباشرة أثره، فجاء التعبير ليصور أنهم لم يعودوا يسمعون عن آثار الجحود أو يرونها في غيرهم، بل صاروا يباشرون ألمها ويعانون نتائجها.

وإضافة ذلك إلى فعل الله سبحانه وتعالى تقرر أن ما يجري في الكون ليس خارجاً عن حكمه وتقديره، وأن النعم والحن تجريان وفق سننه التي يعلمها ويحكم بها. أما قوله ﴿يَمَّا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ فثبتت مسؤولية الإنسان عن أعماله، ويبين أن ما أصابهم ارتبط بما اكتسبوه من الجحود والتكذيب والفساد. ولا يصح أن تجعل الآية قاعدة متعجلة للحكم على كل مجتمع يصاب بالفقر أو الخوف؛ فقد يتلى الله المؤمنين لرفع درجاتهم، وقد تقع المصائب لأسباب متعددة، ولا يملك الناس العلم التفصيلي بحكمة الله في كل حادثة. وإنما موضع الاستدلال هنا مجتمع وصفه الله بالجحود والتكذيب، ثم بين ما حل به بسبب ما صنع.

وهذه الدقة ضرورية في التربية القرآنية؛ فالآيات لا تبيح للإنسان أن يتهم كل مبتلى في دينه أو أخلاقه، ولا أن يفسر كل أزمة تفسيراً أخلاقياً جزئياً من غير علم، لكنها تحذره من الغرور بالنعم، وتدعوه إلى مراجعة أسباب الخلل في نفسه ومجتمعه. فإذا أصابت المجتمع أزمات، وجب عليه أن يجمع بين النظر في الأسباب المادية، والتدبير العملي، ومراجعة الظلم والفساد والتقصير، من غير أن يدعي علم الغيب أو يجزم بأن كل بلاء عقوبة خاصة. فالإيمان بالسنن الإلهية لا يعطل التحليل الواقعي، بل يحجر الإنسان من الوهم بأن النعم تستمر مهما اختل السلوك، أو أن القوة المادية وحدها تكفل الأمن الدائم.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾. لم يكن جحود النعمة منفصلاً عن موقفهم من الهداية؛ فقد جاءهم رسول من جنسهم، يعرفون لسانه وأحواله، ويستطيعون فهم دعوته، لكنه دعاهم إلى الحق فكذبوه. وبذلك اجتمع عليهم جحود النعمة ورد الرسالة، فكان العذاب نتيجة لما أصرروا عليه من الظلم. وفي قوله ﴿مِنْهُمْ﴾ تذكير بنعمة أخرى قد يغفل الناس عنها، وهي أن يبعث الله فيهم رسولاً يعرف أحوالهم ويبلغهم بلغتهم، ويطبق عليهم الحجة بما يستطيعون فهمه.

والصلة بين هذه الآية وما قبلها تكشف أن الشكر لا ينفصل عن الاستجابة للرسالة؛ فليس من تمام شكر الله أن يعترف الإنسان بالرزق والأمن ثم يرفض ما أنزله الله من هدى ينظم حياته ويطبق ميزان العدل فيها. كما أن وجود الرسول لا يعني الناس من مسؤولية

الاستجابة، بل يزيد الحجة وضوحاً. وقد ختم الله الآية بقوله ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ لبيان أن العذاب لم يقع عليهم وهم مظلومون، وإنما وقع بعد قيام الحجة وإصرارهم على التكذيب والجحود. وفي ذلك تقرير لعدل الله سبحانه وتعالى، وتنبيه إلى أن النعم لا تمنح الإنسان حصانة من الحساب، وأن كثرة ما يملك لا تعوضه عن فساد موقفه من الحق.

وبعد هذا المثل الذي كشف مصير الجحود، يعود الخطاب إلى تنظيم علاقة المؤمن بالنعم في الحياة اليومية، فيقول الله تعالى: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾. فالانتقال من ذكر القرية المعذبة إلى الأمر بالأكل الحلال والشكر ليس انتقالاً بعيداً عن موضوع المثل، بل هو بيان للطريق الذي يحفظ النعمة من أن تنقلب إلى سبب للعقوبة. إن الله سبحانه وتعالى لم يأمر عباده بترك الطيبات التي أباحها، ولم يجعل العبادة قائمة على حرمان النفس من الرزق المشروع، بل أمرهم أن ينتفعوا بما رزقهم، على أن يكون انتفاعهم في دائرة الحلال، وأن يقترن بالاعتراف بفضل المنعم.

وقوله ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ يجمع بين مشروعية الشيء في حكم الشرع وكونه طيباً في جنسه أو صفته، بحسب ما يقتضيه السياق. فليس كل ما يرغب فيه الإنسان حلالاً، ولا كل ما يقدر على تحصيله يجوز له أن ينتفع به؛ إذ تضبط الشريعة أسباب الكسب وأنواع المطعومات وحقوق الآخرين. وقد يكون الشيء في أصله مباحاً، لكن يحرم على شخص بعينه بسبب اعتداء أو غصب أو حق واجب لغيره. ولذلك لا ينفصل الحديث عن الطيبات عن الحديث عن الأمانة والعدل، ولا يصح أن يُجعل طلب الرزق ذريعة إلى الربا أو الغش أو أكل أموال الناس بالباطل.

والأمر بالأكل هنا يتناول الانتفاع بالرزق في أصله، ولا ينحصر في تناول الطعام؛ إذ المقصود توجيه الإنسان إلى الاستمتاع بما أباح الله من غير تجاوز. أما قوله ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ فيربط الانتفاع بالتكليف: فالنعمة ليست ملكاً مطلقاً يتصرف فيه الإنسان من غير حدود، بل رزق أذن الله لعباده بالانتفاع به، وأوجب عليهم شكره، وحرم عليهم أن يجعلوه وسيلة إلى معصيته أو الإضرار بخلقه. ومن تمام الشكر أن يطعم الغني المحتاج،

وأن يؤدي صاحب المال حق الفقير، وأن يمتنع الإنسان عن الإسراف والتبذير، وأن يدرك المجتمع أن وفرة الإنتاج لا تكون بركة كاملة إذا صاحبها مظالم في التوزيع أو ضياع لحقوق الضعفاء.

ثم يربط الله سبحانه وتعالى هذا الأمر بأصل العبادة، فيقول: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِثًّا تَعْبُدُونَ﴾. فالعبادة لا تقتصر على الشعائر الظاهرة، بل يدخل فيها الانقياد لأمر الله في المطعم والمشرب والكسب والإفاق، كما يدخل فيها إخلاص القصد له سبحانه وتعالى. ومن هنا لا تكون الطاعة انتقائية، يأخذ الإنسان من الدين ما يوافق رغبته ويترك ما يقيد شهوته، وإنما تقوم العبودية على التسليم لله فيما ثبت أنه شرعه، مع طلب الحكمة والفهم والعمل على مقتضى الدليل.

ويفضل الله سبحانه وتعالى بعض المحرمات فيقول: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْنَا الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَالْخَنْزِيرَ وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾. وهذه الأصناف المذكورة من المحرمات في الطعام: الميتة، والدم المسفوح كما بينته أدلة أخرى، ولحم الخنزير، وما ذُكر عليه اسم غير الله عند الذبح على وجه التعبد له. والمراد بالميتة ما مات من الحيوان الذي لا تحله الزكاة الشرعية، مع مراعاة ما استثنته السنة والأدلة الأخرى من أحكام، فلا يصح تعميم الحكم من غير نظر في تفاصيل النصوص. كما أن ذكر لحم الخنزير يشمل تحريم لحمه، وقد قرر جمهور الفقهاء أن سائر أجزائه داخلة في التحريم، مع بحثهم تفاصيل بعض المسائل المتعلقة بالانتفاع به.

أما قوله ﴿وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ فيؤكد أن التوحيد لا ينفصل عن شعائر الذبح؛ فلا يجوز للمسلم أن يذبح تقرباً لعبداً غير الله، لأن الذبح من العبادات التي يجب إخلاصها لله سبحانه وتعالى. وليس كل ذكر لاسم مخلوق في أي سياق يأخذ الحكم نفسه؛ بل العبرة بحقيقة الفعل وقصده وصورته الشرعية، ولذلك ينبغي التفريق بين الذبح الذي يقصد به التقرب لغير الله، وبين ما يذكره الفقهاء من صور الإخبار أو التسمية التي تحتاج إلى تفصيل. والمبدأ المحكم هو أن العبادة لا تصرف إلا لله وحده.

وقد جاءت صيغة ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ في سياق رد ما افتراه أهل الجاهلية من التحليل والتحریم بغير سلطان من الله، لا في مقام حصر جميع المحرمات الشرعية في هذه الأصناف الأربعة على الإطلاق؛ فقد ثبت تحریم أطعمة وأشياء أخرى بأدلة من القرآن والسنة، كما في تحریم كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير عند جمهور العلماء، وتحریم الخمر وغيرها من المحرمات. ولذلك يحمل المحصر هنا على سياقه وما يقتضيه من إبطال المحرمات التي اختلقها المشركون، أو على الأصناف التي ورد ذكرها في هذا المقام، مع جمع الأدلة بعضها إلى بعض. وهذه قاعدة أصولية مهمة: لا يفهم النص منفصلاً عن سائر نصوص الشريعة، ولا يُعارض دليل ثابت بدليل آخر قبل النظر في السياق والجمع والترجيح (القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تفسير النحل: ١١٥؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الآية: ابن عاشور، التحرير والتنوير، تفسير الآية).

ثم يقرر الله سبحانه وتعالى سعة رحمته في موضع الضرورة، فيقول: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. فالتحریم في حال الاختيار لا يعني أن الشريعة ترك الإنسان للهلاك إذا لم يجد إلا المحرم الذي تدفع به الضرورة. فمن اضطر إلى تناول شيء من هذه المحرمات لدفع خطر حقيقي على حياته أو سلامته، جاز له أن يتناول ما يدفع ضرورته في حدودها، مع اختلاف التفاصيل الفقهية باختلاف الأحوال والأصناف. وقوله ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ فسرهُ أهل العلم بمعانٍ متقاربة، منها ألا يطلب المحرم مع وجود الحلال، وألا يتجاوز القدر الذي تدفع به الضرورة، وقيل: ألا يكون باغياً على غيره أو متجاوزاً حد الضرورة. وهذه المعاني تتكامل في تقرير أن الرخصة تقدر بقدرها، ولا تتحول إلى ذريعة للاستباحة المطلقة (الطبري، جامع البيان، تفسير النحل: ١١٥؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تفسير الآية).

ومن أصول الفقه المستفادة من هذه الآية أن الضرورات تبيح من المحظورات ما تدعو إليه الضرورة، وفق شروطها الشرعية، وأن الرخصة لا تلغي أصل الحكم، وإنما ترفع الحرج في الحالة التي شرعت لها. فالإنسان لا يتناول المحرم لمجرد الرغبة أو التوسع، وإنما إذا تحققت

ضرورة معتبرة، ولم يجد سبيلاً مباحاً يدفع بها الضرر، اقتصر على القدر الذي يحقق المقصود. وهذا يكشف عن توازن الشريعة بين حفظ الدين والنفس وسائر المصالح المعتبرة؛ فهي لا تجعل التكليف سبباً للهلاك، ولا تجعل الرحمة باباً لإبطال الحدود والأحكام.

وبعد بيان ما حرمه الله وما أباحه عند الضرورة، ينهى الله سبحانه وتعالى عن أصل خطير كان من أسباب انحراف أهل الجاهلية، فيقول: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ﴾. فالمشكلة ليست في اختلاف الأذواق أو الأعراف فحسب، وإنما في أن ينسب الإنسان حكماً إلى الله من غير دليل، فيحرم ما لم يحرمه الله، أو يحلل ما حرمه الله، ثم يقدم قوله على أنه دين منزل. وهذا من أخطر أبواب القول على الله بغير علم؛ لأنه يجعل الهوى البشري شريعة، ويخلط بين حكم الله وأحكام الناس، ويحمل الدين ما لم يأذن به الله.

وتعبر ﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذِبَ﴾ بصور كيف قد تسبق الألسنة إلى إطلاق الأحكام قبل التثبت من دليلها. فقد يتوارث الناس حكماً في الحلال والحرام، أو يتبعون عادة اجتماعية، أو يتأثرون بمصلحة تجارية أو سياسية، ثم ينسبون ذلك إلى الدين من غير برهان. وقد يكون الفعل محرماً فعلاً، لكن لا يجوز أن ينسب تحريمه إلى دليل معين لم يثبت، كما لا يجوز إباحة ما ثبت تحريمه بحجة تغير الأذواق أو المصالح المتوهمة. فالفتوى أمانة، والتحليل والتحريم حق لله سبحانه وتعالى، ولا يتكلم فيها بغير علم.

ولا تعني الآية أن الاجتهاد الفقهي ممنوع، أو أن العلماء لا يجوز لهم استنباط الأحكام؛ بل الاجتهاد المنضبط هو طريق لفهم الأدلة وتنزيلها على الوقائع، وقد اختلف العلماء في مسائل كثيرة اختلافاً معتبراً بسبب تفاوت الأدلة أو طرق الاستدلال أو فهم النصوص. وإنما المذموم أن يعتمد الإنسان اختلاق حكم ونسبته إلى الله، أو يفتي بغير علم، أو يتبع الهوى ثم يكسوه لباس الشرع. أما المجتهد المؤهل الذي يبذل وسعه في فهم الأدلة، فيطلب الحق وفق أصوله، فليس داخلاً في هذا الوعيد لمجرد وقوعه في خطأ اجتهادي؛ إذ تختلف أحكام الخطأ بحسب العلم والقدرة والقصد وقيام الحجة.

وتتأكد خطورة هذا الباب في واقع الناس حين تتحول الفتوى إلى وسيلة لتبرير المصالح، أو حين تتساهل الألسنة في إطلاق وصف الحرام والحلال على الأشخاص والجماعات من غير تحقق. فليس من الورع أن يوسع الإنسان دائرة التحريم حتى يجعل المباح حراماً، كما ليس من التيسير الشرعي أن يهون المحرمات الثابتة لإرضاء الرغبات. والواجب أن يقف المسلم عند حدود علمه، فيسأل أهل الذكر فيما يجهل، ويميز بين الحكم القطعي والمسألة الاحتجاجية، وبين النص الشرعي والعرف الاجتماعي، وبين الرأي الشخصي وما ثبت بالدليل.

ثم يحذر الله سبحانه وتعالى من عاقبة الافتراء بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (١) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. فقد يحقق من يختلق الأحكام أو يبيع دينه لهوى دنيوي مصلحة عاجلة، أو ينال مكانة بين الناس، أو يستفيد من سلطة أو مال، لكن هذه المكاسب محدودة زائلة، لا تساوي شيئاً أمام تبعة الكذب على الله. وبهذا تربط الآيات بين أول المقطع وآخره: فالقرية التي تمتعت بالأمن والرزق ثم جحدت النعمة لم ينفعها ما كانت فيه من سعة، ومن يفتري على الله من أجل متاع الدنيا لا يغييه ما حصله إذا لقي عاقبة عمله.

والمعيار القرآني هنا لا يكفي بالسؤال عما إذا كان الإنسان قد ربح أو خسر في الظاهر، بل يسأل عن مصدر الربح وطريق تحصيله ومآله. فقد يكون المتاع كثيراً في أعين الناس، لكنه قليل في الميزان الأخروي إذا كان قائماً على الظلم أو الكذب أو تحريف الدين. وقد يبدو الالتزام بالحلال والحرام سبباً لفوات بعض المنافع العاجلة، لكنه يحفظ على الإنسان دينه وكرامته، ويجعله قادراً على مواجهة ربه بضمير لا يعتمد تبرير الباطل.

ثم يبين الله سبحانه وتعالى أن بعض الأحكام الخاصة التي نزلت بالأُم السابقة كانت متصلة بأعمالهم، فيقول: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. يشير هذا إلى ما سبق بيانه من المحرمات التي فرضت على اليهود، ومنها ما ذكر في سورة الأنعام من تحريم بعض ذوات الظفر، ومن البقر والغنم ما حرم عليهم

بسبب بغيمهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَزَمًا كُلِّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَزْمًا عَلَيْهِمْ تُحُومُهُمَا﴾ [الأنعام: ١٤٦]. وليس المقصود أن كل حكم شرعي في حقهم كان عقوبة، وإنما المقصود هنا بيان أن بعض التحريم الذي اختصوا به جاء جزاءً على بغيمهم ومعاصيهم، وأن الله سبحانه وتعالى لم يظلمهم حين شرع لهم ذلك.

وقوله ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يعيد القضية إلى أصلها: أن الله سبحانه وتعالى منزّه عن الظلم، وأن ما شرعه قائم على العدل والحكمة، وأن الإنسان قد يجني على نفسه حين يختار المعصية ويصر عليها. وهذا المعنى يرد على من يتصور أن اختلاف بعض الأحكام بين الشرائع دليل على الاعتبار أو التناقض؛ فالشرائع السبائية تتفق في أصول التوحيد والعبادة والأخلاق، وقد تختلف بعض أحكامها التفصيلية وفق ما شرعه الله لكل أمة. ولا يصح أن يقاس حكم شريعة على أخرى من غير مراعاة النصوص التي بينت اختصاص كل حكم بأهله وزمانه.

وفي هذا السياق يظهر الفرق بين التحريم الذي يشرعه الله بحكمة، والتحريم الذي يختلف البشر من عند أنفسهم؛ فالأول حق يجب التسليم له، والثاني افتراء إذا نسب إلى الله بغير دليل. ومن هنا كانت معرفة مصادر التشريع وضبط الاستدلال ضرورة لحفظ الدين من الغلو والتفريط معاً. فليس كل ما اعتاده الناس حلالاً لمجرد شيوعه، وليس كل ما نفروا منه حراماً لمجرد استنكارهم له؛ وإنما المرجع في ذلك إلى الوحي، مع اجتهاد العلماء في فهمه وتنزيله على الوقائع.

وبعد الحديث عن الجحود والافتراء والعقوبة، يختم الله سبحانه وتعالى هذا المقطع بفتح باب الرجاء، فيقول: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وهذا الانتقال ليس خروجاً عن موضوع الآيات، بل هو تمام التربية القرآنية؛ فبعد أن عرض الله سبحانه وتعالى عاقبة الجحود، وشدد النبي عن الافتراء عليه، بين أن باب التوبة مفتوح لمن وقع في سوء ثم رجع وأصلح. فالتحذير من

الذنب لا يقتضي إغلاق باب الرحمة، كما أن سعة الرحمة لا تعني الاستهانة بالذنب أو التسويف في التوبة.

وقوله ﴿عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ لا يلزم منه أن كل من وقع في المعصية كان فاقداً للمعرفة بحكمها؛ فقد فسر أهل العلم الجهالة هنا بما يصاحب المعصية من سفه ومخالفة لأمر الله، وإن كان العاصي يعلم أن ما يفعله معصية. وقد يدخل فيها أيضاً من ارتكب الذنب لجهل بحقيقته أو بحكمه. وعلى هذا، لا يصح أن يتخذ الإنسان الآية ذريعة للقول إن المعصية لا تكون معصية إلا إذا جهل فاعلها التحريم؛ بل المراد بيان حال من غلب عليه التقصير والجهل العملي، ثم عاد إلى الله بالتوبة والإصلاح (الطبري، جامع البيان، تفسير النحل: ١١٩؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الآية؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تفسير الآية).

ولم يكنف الله سبحانه وتعالى بذكر التوبة، بل قرنها بالإصلاح، فقال: ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾. فالتوبة الصادقة تتضمن الإقلاع عن الذنب، والندم على فعله، والعزم على عدم العودة إليه، وتقتضي رد الحقوق إلى أهلها إذا تعلقَت المعصية بحقوق العباد. أما الإصلاح فيشمل تصحيح ما أفسده الإنسان بحسب استطاعته، وإعادة الحقوق، وتغيير السلوك الذي كان سبباً في الانحراف، والسعي إلى أداء الواجبات التي قصّر فيها. وليس معنى ذلك أن كل ذنب يستلزم إصلاحاً واحداً بعينه، بل يختلف الأمر بحسب نوع الذنب وآثاره والحقوق المتعلقة به.

وتتجلى رحمة الله في أن التوبة لا تتوقف على أن يكون الإنسان قد عاش حياة خالية من الأخطاء، وإنما يستطيع أن يبدأ طريق الرجوع بعد التقصير، ما دامت التوبة مستوفية لشروطها ولم يأت الأجل الذي تنقطع عنده التوبة المقبولة. وقد يخطئ المرء في باب من أبواب الدين، ثم يتعلم ويتوب ويصلح، فيكون صدق رجوعه سبباً في تغير حياته. وليس في ذلك تهوين من المعصية، بل هو تقرير أن الإصرار ليس قدراً لازماً، وأن العبد مسؤول عن الاستجابة للحق متى تبين له.

والتعبير بقوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يجمع بين مغفرة الذنب والرحمة بالعبء؛ فالمغفرة ستر الذنب والتجاوز عنه، والرحمة أوسع من ذلك، إذ تشمل الإحسان والتوفيق والهداية وسائر ألوان الفضل. وإضافة الربوبية إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم في ﴿رَبَّكَ﴾ تحمل معنى التثبيت والتكريم، وتفتح باب الرجاء في رحمة الله التي لا تضيق عن التائبين الصادقين. ومع ذلك، فقبول التوبة إلى الله سبحانه وتعالى، ولا يجوز لأحد أن يجزم بقبول توبة شخص بعينه من غير دليل، وإنما يرجو التائب رحمة ربه، ويأخذ بأسباب صدق التوبة والإصلاح.

وهكذا ينتهي المقطع بجمع متوازن بين المسؤولية والرجاء. فالقرية التي كثرت بالنعم عوقبت بما يناسب مجودها، والمكذبون الذين ردوا الرسول ظلموا أنفسهم، ومن افتري على الله في الحلال والحرام توعده الله بالحسran، ومن حملته المعصية على مخالفة أمر الله ثم تاب وأصلح وجد باب المغفرة مفتوحاً. وليس بين هذه المعاني تعارض؛ لأن العدل يقتضي المؤاخظة على الإصرار والظلم، والرحمة تقتضي قبول التوبة ممن رجع وأصلح وفق ما شرعه الله.

وتؤدي هذه الآيات وظيفة محورية في البناء العام لسورة النحل؛ إذ تعود إلى موضوع النعمة الذي تكرر في السورة، ولكنها تنقله من تعداد مظاهر الرزق إلى بيان المسؤولية عن النعمة ومآل الجحود. فبعد أن عرضت السورة نعم الكون والأنعام والثمار والنحل، وأظهرت ما فيها من دلائل قدرة الله وحكمته، جاء مثل القرية ليبين أن النعمة ليست غاية مستقلة، بل أمانة تستوجب الشكر، وأن الأمن والرزق قد يتحولان إلى موضع ابتلاء إذا أورتا الغفلة عن المنعم. ثم ينتقل المقطع إلى الحلال والحرام ليقرر أن الشكر العملي لا يتحقق بمجرد الانتفاع بالرزق، وإنما يتحقق كذلك بالالتزام بحدود الله، وترك الافتراء عليه، ورد الأحكام إلى الوحي.

كما يمهّد ختام المقطع للحديث عن إبراهيم عليه السلام في الآيات التالية؛ لأن تصحيح التحليل والتحرّيم والرجوع إلى التوحيد يقودان إلى الاقتداء بمن حقق العبودية الحاصلة لله. فبعد أن كشف الله سبحانه وتعالى فساد الجحود والتحريف، وأبطل أن تكون أهواء البشر مصدرًا للتشريع، يأتي ذكر إبراهيم عليه السلام نموذجًا للحنيفية والتوحيد والشكر.

وبهذا ينظم المقطع في مسار واحد: نعمة تستوجب الشكر، وجود يؤدي إلى الخسران، ووجي يضبط الحلال والحرام، وتوبة تعيد الإنسان إلى طريق الله، ثم اقتداء بإبراهيم الذي قام بحق العبودية والشكر.

والهداية العملية التي يخرج بها المؤمن من هذا المقطع أن يحفظ نعم الله بالشكر والطاعة، وألا يغتر باستقرار حياته أو وفرة رزقه، وأن يسعى في إصلاح مجتمعه مع الأخذ بالأسباب المشروعة، وألا ينسب إلى الله حكمًا بغير علم، وأن يتحرى الحلال في مطعمه ومكسبه، وأن يعرف حدود الرخص الشرعية عند الضرورة، وألا يقنط من رحمة الله إذا أخطأ، بل يبادر إلى التوبة والإصلاح ورد الحقوق. أما المجتمعات، فعليها أن تدرك أن الأمن والرخاء لا يستقيمان بالقوة المادية وحدها، بل يحتاجان إلى العدل، وأداء الحقوق، وصيانة الكرامة، ومقاومة الفساد، وشكر الله على ما أنعم به من أسباب الحياة.

إن المقصد الجامع لهذا المقطع أن النعمة امتحان، والشرعية ميزان، والتوبة طريق للعودة إلى الله. فمن شكر النعمة حفظ حقها، ومن التزم حدود الله صان دينه، ومن وقع في الخطأ لم يكن له أن يصر عليه أو ييأس من الرحمة، بل يرجع إلى ربه ويصلح ما استطاع. وبهذا تتكامل في السورة معاني التوحيد والنعمة والشكر والتشريع والتوبة، وتتهيأ النفوس للانتقال إلى النموذج القرآني الأبرز في تحقيق الحنيفية والشكر، وهو إبراهيم عليه السلام، الذي ستعرض الآيات التالية سيرته لتجعل من التوحيد سلوكًا حيًا، ومن الشكر منهج حياة، ومن طاعة الله أصلًا جامعًا للعقيدة والعمل.

المقطع العاشر: إبراهيم إمام التوحيد والشكر، ومنهج الدعوة بالحكمة، والصبر سبيل الثبات على الحق

الآيات (١٢٠-١٢٨) — خاتمة سورة النحل

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٨﴾ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٩﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ثُمَّ أُوحِيَ إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٣٢﴾ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٣٣﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٣٤﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٣٥﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٨].

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى في المقطع السابق عاقبة الجحود بالنعم، وخطر الافتراء عليه في الحلال والحرام، وفتح باب التوبة لمن رجع إليه وأصلح، يختم سورة النحل بتقديم النموذج الإنساني الذي تجسدت فيه حقيقة التوحيد والشكر، وهو إبراهيم عليه السلام، ثم يوجه نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم إلى اتباع ملته، ويقرر أصول الدعوة إلى الله، ويضبط التعامل مع الأذى والعدوان، ويأمر بالصبر، ويختم بوعده جامع لأهل التقوى والإحسان. وهكذا لا تأتي الخاتمة مجرد تلخيص لما سبق، بل تجمع خيوط السورة الكبرى في منهج عملي متكامل: توحيد خالص، وشكر للنعمة، واتباع للوحي، ودعوة بالحكمة، وعدل عند القدرة، وصبر عند الأذى، وإحسان في جميع الأحوال.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. يبدأ الاختتام بإبراهيم عليه السلام، لا بوصفه شخصية تاريخية يقتصر أثرها على زمانها، بل بوصفه إمامًا

في التوحيد، وقدوة في العبودية، ونموذجاً في الثبات على الحق. وقد وصفه الله بأنه ﴿أُمَّةٌ﴾، أي جامع لخصال الخير التي يتفرق وجودها في جماعات كثيرة، وقيل: إماماً يقتدى به، وقيل: معلماً للخير، وقيل غير ذلك من المعاني المتقاربة. واللفظ يحتمل هذه الدلالات في إطار واحد؛ إذ كان إبراهيم عليه السلام إماماً في الهدى، جامعاً لخصال الخير، قائماً لله وحده، فاستحق أن يجعل قدوة للموحدين. وليس المراد أنه أمة بالمعنى العددي المعتاد، وإنما عظم شأنه في الخير حتى استحق هذا الوصف البليغ (الطبري، جامع البيان، تفسير النحل: ١٢٠)؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير الآية؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، تفسير الآية).

وفي قوله ﴿قَائِلًا لِلَّهِ﴾ بيان لجوهر هذه الإمامة؛ فالقنوت هو دوام الطاعة والخضوع لله، مع إخلاص العبادة له والثبات على أمره. لم تكن عظمة إبراهيم عليه السلام في نسب أو مال أو جاه، وإنما في عبودية صادقة جعلت حياته كلها قائمة على طاعة الله. ثم وصفه سبحانه بقوله ﴿حَنِيفًا﴾، أي مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، مقبلاً على الله معرضاً عن كل معبود سواه. فالحنيفية ليست مجرد رفض لبعض مظاهر الشرك، بل توجه كامل إلى الله بالتوحيد، وتجرد من عبادة الهوى والأوثان وكل ما يناقض إخلاص العبودية.

ثم أكد الله هذا المعنى بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ لأن التوحيد الذي قامت عليه دعوة إبراهيم لا يقبل أن تختلط به عبادة غير الله. وقد واجه إبراهيم عليه السلام قومًا استقر الشرك في معتقداتهم وعاداتهم، فلم يمنعه انتشار الباطل من الثبات على الحق، ولم يجعل موافقة المجتمع معياراً لصحة الاعتقاد. وفي هذا درس بالغ للأمة: أن كثرة المخالفين لا تجعل الباطل حقاً، وأن العادات الموروثة لا تصبح ديناً بمجرد رسوخها، وأن سلامة التوحيد تقتضي رد المعتقدات والممارسات إلى الوحي، لا إخضاع الوحي لما ألفه الناس.

وإذا كان إبراهيم عليه السلام قد بلغ هذه المنزلة، فإن الله سبحانه وتعالى يكشف عن خصلة مركزية من خصاله، فيقول: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ﴾. وهنا تلتقي خاتمة السورة بمقصدها المتكرر منذ بدايتها؛ فقد عرضت سورة النحل نعم الله في السماء والأرض، وفي الأنعام

والثمار والنحل، وفي الأمن والرزق والمسكن ووسائل الحياة، ثم كشفت عاقبة الذين حمدوا تلك النعم. أما إبراهيم عليه السلام فيأتي نموذجاً لمن عرف المنعم، وأخلص له العبادة، وقابل إحسان الله بالشكر والطاعة.

والشكر في حياة إبراهيم عليه السلام لم يكن كلمة عابرة، بل عبودية متجددة ظهرت في إخلاصه وثباته ودعوته وتوكله. فالإنسان قد يشكر الله على الرزق، لكنه يغفل عن شكر نعمة الهداية؛ وقد يشكر على الأمن والصحة، لكنه لا يؤدي حق النعمة في العبادة والعمل الصالح. أما إبراهيم عليه السلام فجمع بين شكر النعم وإخلاص التوحيد، فاستحق ما أخبر الله به بعد ذلك من الاجتباء والهداية. ومن هنا يعلم المؤمن أن أعظم النعم ليست ما يملكه من متاع الدنيا وحده، بل أن يهديه الله إلى معرفته وعبادته، وأن يثبتته على الحق، وأن يوفقه لاستعمال ما أنعم به عليه فيما يرضيه.

ثم يقول سبحانه: ﴿اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. الاجتباء اصطفاء من الله لعبده لما يعلمه سبحانه من حكمته، والهداية إلى الصراط المستقيم توفيق إلى الحق ومعرفة به وسلوك سبيله. وهنا تظهر حقيقة ينبغي أن تستقر في قلب المؤمن: أن العمل الصالح لا يستقل عن فضل الله، وأن اصطفاء الأنبياء وهدايتهم منة من الله، وأن العبد مع ما يبذله من إيمان وطاعة يظل محتاجاً إلى توفيق ربه وتثبيتته. فلا يغتر بالطاعة، ولا ينسب الفضل إلى نفسه استقلالاً، بل يجتهد في العمل ويشكر الله على الهداية، ويسأله الثبات عليها.

وفي ترتيب الآية دلالة بديعة؛ فقد ذكر الله شكر إبراهيم عليه السلام، ثم أخبر باجتبائه وهدايته. وهذا لا يعني أن الشكر استقل بإيجاد الهداية بعيداً عن فضل الله، وإنما يبين تلازم العبودية الصادقة مع فضل الله وتوفيقه؛ فالله هو الذي أنعم وهدى، وإبراهيم عليه السلام قام بما أمر به من إخلاص وشكر وطاعة. وهكذا تجتمع في حياة المؤمن مسؤولية العمل والافتقار إلى الله: يعمل لأنه مأمور، ويستعين بالله لأنه لا حول له ولا قوة إلا به، ويشكر لأنه يعلم أن أصل النعمة ومنبتها من ربه سبحانه وتعالى.

ثم يقرر الله ما أكرم به إبراهيم عليه السلام في الدنيا والآخرة، فيقول: ﴿وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾. وقد فسر أهل العلم الحسنه في الدنيا بالثناء الحسن، والذكر الجميل، والذرية الصالحة، والنبوة، وغير ذلك مما أنعم الله به عليه، ولا يلزم حصرها في واحد من هذه المعاني؛ إذ اجتمعت لإبراهيم عليه السلام وجوه من الخير الدنيوي، وأعظمها أن بقي ذكره في العالمين مقروناً بالتوحيد والإمامة والافتداء. ثم أخبر الله عن منزلته في الآخرة، وأنه من الصالحين، وهي المنزلة التي لا تقاس بمناج الدنيا ولا تنقضي بانقضاء العمر.

وتتصل هذه الآية اتصالاً مباشراً بالمثل الذي سبق في السورة عن القرية التي كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، ثم كفرت بأنعم الله. فليست العبرة في مقدار ما يناله الإنسان من متاع الدنيا، وإنما في موقفه من المنعم، وفي حقيقة إيمانه وعمله، وفي ماله عند الله. وقد يجتمع للعبد خير الدنيا والآخرة بفضل الله، لكن لا يجوز أن يتخذ ما عنده من رخاء مقياساً قطعياً لرضا الله عنه، ولا أن يجعل ما يصيب غيره من ضيق دليلاً على سخط الله عليه. الميزان الذي تقرره الآيات هو الهداية والتقوى والعمل الصالح، وما يعلمه الله من أحوال عباد، لا مجرد وفرة الأموال أو سعة النفوذ.

وبعد عرض هذه القدوة، يوجه الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم، ومن خلاله الأمة، إلى أصل الاتباع، فيقول: ﴿ثُمَّ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ أَشْبَحَ مَلَأَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. فملة إبراهيم هي التوحيد الخالص الذي يقوم على إخلاص العباد لله، والبراءة من الشرك، والاستقامة على الحق. والأمر باتباعها لا يعني أن النبي صلى الله عليه وسلم كان خارجاً عن التوحيد ثم أمر به، وإنما هو تأكيد لأصل الرسالات السماوية الجامع، وبيان أن دعوة محمد صلى الله عليه وسلم امتداد لدعوة إبراهيم وسائر الأنبياء في أصول الدين، مع ما شرعه الله لكل رسول وأمة من أحكام تخصهم.

ويكشف هذا التوجيه عن وحدة الطريق الذي سارت عليه الرسالات في أصل الاعتقاد: عبادة الله وحده، وترك الشرك، والاستجابة للوحي، وإقامة الحياة على العبودية لله. فلا

تكون الملة اتباعاً لاسم أو انتساباً تاريخياً، بل التزاماً بحقيقة التوحيد. وقد انتسب بعض أهل الكتاب والمشركون إلى إبراهيم عليه السلام، لكن الانتساب وحده لا يكفي إذا خالف صاحبه أصل ملته. ولهذا كان الاحتجاج بإبراهيم في القرآن احتجاجاً بحقيقة دينه، لا بمجرد الدعوى؛ فمن أراد الاقتداء به فعليه أن يحقق الحنيفية التي وصفه الله بها.

وفي هذا توجيه للأمة إلى أن تستمد هويتها الدينية من الوحي، وأن تفهم تراث الأنبياء في ضوء ما ثبت من دعوتهم، لا في ضوء ما تضيفه العصبية أو الموروثات المخالفة للحق. كما يبين أن وحدة الرسائل لا تعني تطابق جميع الشرائع التفصيلية، بل تعني اجتماعها في أصول التوحيد والإيمان بالله، مع اختلاف بعض الأحكام التي يشرعها الله بحكمته. وهذا المعنى يمهّد للآية التالية التي تتحدث عن السبب، فتضع اختلاف الأحكام في سياقه، وترد الحكم النهائي إلى الله سبحانه وتعالى.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾. تتصل هذه الآية بما سبق من الحديث عن ملة إبراهيم، وما ورد قبل ذلك عن الأحكام التي خص الله بها بعض الأمم؛ فهي تذكر حكم السبب الذي فرض على اليهود، وتشير إلى اختلافهم في شأنه، وما ترتب على ذلك من تكليف وابتلاء. وقد اختلف المفسرون في تفصيل المراد بالاختلاف في الآية، وفي علاقته بأصل فرض السبب وما وقع فيه بنو إسرائيل من تعدّي، لكن المعنى الذي يثبتته السياق أن هذا الحكم متعلق بما شرعه الله لهم، وأن الفصل النهائي في اختلافهم إليه سبحانه وتعالى (الطبري، جامع البيان، تفسير النحل: ١٢٤؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تفسير الآية؛ ابن عاشور، التحرير والتنوير، تفسير الآية).

ولا يصح أن يفهم من الآية أن يوم السبب شرع لجميع الأمم على السواء، أو أن اختلاف الشرائع في بعض الأحكام يناقض وحدة الدين؛ فقد يختص حكم بأمة دون أخرى، وفق ما أنزله الله من شرائع. وإنما الواجب على كل أمة أن تتبع ما شرعه الله لها، وألا تجعل أهواءها أو تحالبها على الأحكام بدلاً عن الامتثال. وقد كشف القرآن في مواضع أخرى كيف يؤدي

التحليل على أمر الله إلى إفراغ التكليف من مقصوده، مع بقاء صورته الظاهرة؛ فالعبرة ليست بمجرد المحافظة على الشكل، بل بصدق الاستجابة لأمر الله.

ثم يختم الله الآية بقوله ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، ليعيد المختلفين إلى الميزان الذي لا يخطئ ولا تحكمه الأهواء. فقد تتعدد الأقوال، وتتداخل المصالح، ويطول النزاع بين الناس، لكن اختلافهم لا يضيع عند الله، ولا يكون الحكم النهائي لمن امتلك القوة أو أكثر الأتباع أو رفع صوته. الله سبحانه وتعالى أعلم بحقيقة ما اختلفوا فيه، وبما قامت به الحجة على كل فريق، وهو الذي يفصل بينهم بالعدل.

وهذا المعنى يهيئ للانتقال من عرض القدوة والشرائع إلى بيان وظيفة الأمة في تبليغ الحق؛ فبعد أن تقرر أن الله هو الحكم بين المختلفين، لا يُطلب من الدعاة أن يستولوا على ضائر الناس أو أن يدعوا لأنفسهم علم ما استقر في القلوب، وإنما يُطلب منهم أن يبلغوا دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يجادلوا بالتي هي أحسن، ويتركوا الحكم على السرائر إلى الله العليم بها.

ومن هنا يأتي الأمر الجامع في ختام السورة، فيقول سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. وهذه الآية من أصول الدعوة إلى الله، لأنها تجمع وسائل تبليغ الحق، وتضبط طريقة استعمالها بحسب أحوال المخاطبين ومقامات الخطاب. فالدعوة ليست مجرد نقل للمعلومات، ولا هي خصومة يراد بها الانتصار للنفس، وإنما هي تبليغ سبيل الله بقصد هداية الخلق، مع التزام الحق والرفق والعدل، ومراعاة ما يصلح لكل مقام.

والحكمة هي وضع الأمر في موضعه، وإصابة الحق في القول والعمل، واختيار الأسلوب المناسب للمخاطب والظرف، مع الاستناد إلى العلم والبصيرة. ويدخل فيها بيان العقيدة بالدليل، وتعليم الأحكام على وجه واضح، وترتيب المسائل بحسب أهميتها، والتمييز بين ما يحتاج إلى حجة عقلية، وما يحتاج إلى تذكير بآيات الله، وما يحتاج إلى تعليم متدرج يراعي

قدرة المتلقي. وليست الحكمة أن يتنازل الداعية عن الحق طلباً لرضا الناس، بل أن يبلغ الحق بالطريقة التي تحقق مقصود الدعوة من غير إخلال بالثواب أو تجاوز للعدل.

أما ﴿الْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ﴾ فتجمع التذكير الذي يلين القلب، ويوقظ الضمير، ويربط الإنسان بعاقبة عمله، ويرغبه في الخير ويحذره من الشر، بعبارة صادقة ورحمة ظاهرة. وقد يحتاج المخاطب إلى بيان الدليل، وقد يحتاج إلى تذكيره بنعمة الله، وقد يكون قد عرف الحكم لكنه غفل عن أثره في قلبه وحياته؛ فتأتي الموعظة لتصل العلم بالخشية، والمعرفة بالعمل. ولا تكون الموعظة حسنة إذا قامت على الكذب أو التشهير أو الإذلال، أو استغلت ضعف الناس لإخضاعهم، لأن الوسيلة المخالفة للشرع لا تصير مشروعة لمجرد أن صاحبها يدعي إرادة الإصلاح.

ثم يأمر الله سبحانه وتعالى بالجدال بالتي هي أحسن، أي بأفضل الطرق وأقربها إلى إظهار الحق ودفع الشبهة، من غير ظلم ولا تعصب ولا انحطاط إلى السباب. والجدال قد يكون مطلوباً حين تثار الشبهات أو يعترض الناس على أصول الدين وأحكامه، لكن المقصود منه بيان الحق لا مجرد إسكات الخصم. ولذلك ينبغي للداعية أن يفرق بين من يسأل طالباً للفهم، ومن يناقش متردداً يحتاج إلى بيان، ومن يجادل طلباً للغلبة، وأن يختار لكل حال ما يناسبها من العلم والرفق والحزم المشروع.

ولا تعني عبارة ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ترك الحزم في موضعه، أو السكوت عن الباطل، وإنما تعني أن يكون الحوار قائماً على عدل الأقوال وأقواها حجة وأحسنها أثراً، مع اجتناب الظلم والكذب والسخرية والاعتداء. فقد يكون البيان الحازم هو الأنسب في موضع، ويكون الرفق والتدرج هو الأنسب في موضع آخر، لكن الجميع يجب أن يخضع لمعيار الشرع والحكمة. ومن هنا فإن الدعوة الناجحة لا تقاس بارتفاع الصوت أو كثرة الخصوم الذين أخرجوا، بل بصدق التبليغ، وسلامة المنهج، والعدل في الحوار، وبذل الوسع في إيصال الحق.

ثم يضبط الله سبحانه وتعالى موقف الداعية من نتائج دعوته، فيقول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَدِينَ﴾. فالله وحده يعلم العلم التام بحقائق القلوب، وما قام على العبد من حجب، وما أحاط به من موانع، وما صدق فيه من طلب الحق أو أعرض عنه. وعلى الداعية أن يبلغ بالحكمة ويقم الحجة بحسب استطاعته، لكنه لا يملك أن يخلق الهداية في القلوب، ولا يجوز له أن يحكم على بواطن الناس بغير دليل.

وهذا التوجيه يحمي الداعية من آفتين متقابلتين: اليأس حين لا يرى استجابة سريعة، والغرور حين يرى إقبال الناس على دعوته. فالهداية فضل من الله، وعلى الداعية أن يؤدي ما كلفه الله به، وأن يراجع أسلوبه إذا أخطأ، وأن يصبر على بطء النتائج، وألا ينسب كل نجاح إلى مهارته أو كل إخفاق إلى فساد المخاطبين. كما يحرره هذا الأصل من تحويل الدعوة إلى صراع على الشعبية أو النفوذ؛ لأن المعيار هو أداء الأمانة، لا امتلاك قلوب الناس والتحكم في اختياراتهم.

وفي واقع الأمة، تتسع دلالة هذه الآية لتشمل التعليم والإصلاح الاجتماعي والحوار الفكري والتوجيه الأسري والعمل الدعوي. فالمعلم يحتاج إلى الحكمة في ترتيب المعرفة، والوالد يحتاج إلى الموعظة الحسنة في تربية أبنائه، والعالم يحتاج إلى الدليل والإنصاف عند معالجة الشبهات، والمصلح يحتاج إلى الجمع بين وضوح الحق وحسن التعامل مع الناس. ولا يحقق الغضب وحده إصلاحًا، كما لا تحقق المجاملة التي تلمس الحق إصلاحًا؛ وإنما تقوم الدعوة على علم يضبطها، وإخلاص يوجهها، ورحمة تحسن عرضها، وصبر يحمل صاحبها على الاستمرار.

وبعد أن قرر الله سبحانه وتعالى منح الدعوة، ينتقل إلى ضبط التعامل مع العدوان، فيقول: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾. فالآية تقرر أصل العدل في مقابلة الاعتداء، وتمنع أن يتحول الألم إلى ذريعة للتجاوز. فإذا شرع للمظلوم أن يقتص، لم يجز له أن يتعدى مقدار الحق، أو أن يعاقب بريئًا بجريرة غيره، أو أن يجعل

الانتقام باباً لظلم جديد. فالمؤمن لا يفقد ميزان العدل حين يغضب، ولا تسقط حقوق الآخرين لمجرد أنه تعرض للظلم.

وقوله ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ لا يعني إباحة كل صورة من صور الرد بالمثل بلا قيود، بل يفسر في ضوء سائر أدلة الشرع التي تضبط القصاص، وتمنع العدوان، وتحرم الاعتداء على من لا يستحقه. فالمائلة المطلوبة مائلة عادلة مشروعة، لا تتجاوز فيها ولا تعدّ، ولا يجوز أن يُستدل بالآية لتبرير أعمال محرمة أو انتقام خارج سلطان القضاء والضوابط الشرعية. وفي الحقوق التي تتعلق بالأفراد والجماعات، ينبغي رد النزاع إلى الجهات المختصة وأحكام الشرع، حتى لا تتحول المطالبة بالحق إلى فوضى يعتدي فيها كل طرف على الآخر.

ثم يرغب الله سبحانه وتعالى في مرتبة أعلى من مجرد استيفاء الحق، فيقول: ﴿وَلَمَّا صَبَرْتُمْ لَهَوِ خَيْرٍ لِلصَّابِرِينَ﴾. فالصبر هنا ليس عجزاً عن رد العدوان، ولا إقراراً للظالم بظلمه، وإنما هو ضبط للنفس، وامتناع عن التجاوز، واختيار لما هو أصلح وأقرب إلى مرضاة الله حين يكون الصبر مشروفاً وأحسن عاقبة. وقد يكون استيفاء الحق بالعدل هو الواجب أو الأصلح في بعض الأحوال، وقد يكون العفو والصبر أفضل إذا ترتب عليهما إصلاح حقيقي، وأمناً من استمرار الظلم، وحفظ للحقوق والمصالح. فلا يصح أن يُجعل الصبر دعوة إلى تعطيل العدل، ولا أن يُجعل القصاص ترخيصاً للانتقام المنفصل.

وتكشف الآية عن ميزان تربوي عميق؛ فالإنسان حين يُظلم قد يشعر بأن استعادة كرامته لا تكون إلا بإيلاام خصمه، لكن القرآن يقرر أن كرامة المؤمن لا تقوم على التشنفي، بل على التزام الحق. وقد يكون العفو قوة أخلاقية حين يملك الإنسان القدرة على الرد، لكنه يختار الصبح لمصلحة معتبرة، كما قد يكون طلب الحق ضرورة لحماية الضعفاء ومنع المعتدين من التناهي. والميزان في الحالتين هو ما يقرره الشرع من العدل والمصلحة، لا اندفاع الغضب ولا ضغط المجتمع.

وقد جاء هذا التوجيه في سياق الدعوة ليبين أن الداعية لا يفقد أخلاق الدعوة عندما يتعرض للأذى. فلا يحق له أن يجعل الإساءة التي تعرض لها مبرراً للكذب أو البهتان أو الاعتداء على الأبرياء، ولا أن يرد الخطأ بخطأ أشد منه. وفي المقابل، ليس مطالباً بأن يترك كل حق أو أن يسكت عن كل اعتداء؛ وإنما عليه أن يلتزم العدل، وأن يعرف متى يكون الصبر أصلح، ومتى يكون دفع الظلم واسترداد الحق واجباً أو أنفع.

ثم يخص الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالأمر بالصبر، فيقول: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾. وهذه الآية تجمع بين التكليف والاستعانة؛ فالنبي مأمور بالصبر، لكنه لا يستقل بقوته عن توفيق الله. والصبر الذي تحتاج إليه الدعوة ليس احتمال الأذى في موقف واحد فحسب، بل الثبات على الحق مع طول الطريق، والاستمرار في البلاغ مع تكذيب المكذبين، والالتزام بأحكام الله حين تتعارض مع أهواء الناس، وضبط النفس حين تشتد أسباب الغضب والحزن.

وقوله ﴿وَما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ يقرر أن الاستعانة بالله أصل الثبات، وأن الإنسان مهما أوتي من قوة نفسية وعقلية يظل محتاجاً إلى ربه. فلا ينافي ذلك أن يتعلم وسائل ضبط النفس، وأن يستشير أهل العلم والخبرة، وأن يستعين بالأسباب المشروعة؛ بل هذه الأسباب نفسها من جملة ما يأذن الله به ويسره. وإنما المنفي هو استقلال العبد عن ربه، لا انتفاعه بالأسباب. فالمؤمن يجمع بين الدعاء والعمل، وبين التوكل والأخذ بالأسباب، ويعلم أن دوام الثبات نعمة تحتاج إلى شكر وتجديد استعانة.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾. والمقصود نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الحزن الذي يستغرقه بسبب إغراض المكذبين، وعن الضيق الذي ينشأ من مكرهم وتدبيرهم لإبطال دعوته. وليس في ذلك نفي لما فطر الله عليه الإنسان من حزن مشروع أو تألم لما يصيب الناس، وإنما هو توجيه إلى ألا يتحول الحزن إلى ما يضعف العزم أو يعطل أداء الرسالة. فالنبي صلى الله عليه وسلم كان رحيمًا بقومه، حريصًا

على هدايتهم، لكن تكذيبهم لا ينبغي أن يحمله على اليأس من رحمة الله أو الانشغال بمكرهم عن واجب البلاغ.

وهذا من أعظم أصول التربية الدعوية: أن يجمع المصلح بين الرحمة بالناس والثبات على الحق، فلا يقسو قلبه حتى يفقد الشفقة، ولا يشتد حزنه حتى يفقد القدرة على مواصلة العمل. فالهداية بيد الله، والواجب على الداعية أن يبذل ما يستطيع من بيان ونصح وصبر، أما استجابة الناس فليست تحت سلطانه. وقد يتأخر أثر الدعوة، أو لا يرى الداعية ثمرة حمده في حياته، لكن ذلك لا يجعل العمل الصادق ضائعاً؛ فالله سبحانه وتعالى يعلم ما يبذله عباده، ويجازيهم على أعمالهم بالعدل والفضل.

وفي قوله ﴿مَمَّا يَمْكُرُونَ﴾ إشارة إلى أن مكر الخصوم لا ينبغي أن يتحول إلى مركز الحياة الدعوية كلها. فمعرفة مخططات المعارضين قد تكون مطلوبة لاتقاء الضرر وحماية الناس، لكن الانشغال الدائم بها يستهلك الطاقات ويصرفها عن البناء والإصلاح. والمنهج القرآني يوجه إلى أداء الواجب، والثبات على الحق، والتعامل مع المخاطر بوعي وحكمة، من غير استسلام للخوف ولا اندفاع إلى ردود أفعال غير محسوبة. فلا يكون المكر هو الذي يحدد أهداف المؤمن وأخلاقه، بل يظل الوحي هو الميزان الذي يضبط مواقفه.

ثم تأتي خاتمة السورة في آية موجزة تجمع أصول الطريق كله، فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾. وهذه المعية هي معية خاصة تليق بجلال الله سبحانه وتعالى، تدل على نصره وتأييده وتوقيه وحفظه لعباده بحسب ما تقتضيه حكمته، وليست معية ماثلة لمعيات المخلوقين. وقد جمع الله فيها بين التقوى والإحسان، لأن الثبات الكامل على سبيله يحتاج إلى اجتناب ما حرم، والقيام بما أوجب، ثم الارتقاء في العبادة والعمل إلى مقام الإحسان.

فالتقوى أن يجعل العبد بينه وبين سخط الله وقاية بطاعته واجتناب معصيته، فيلتزم حدود الله في السر والعلن، ويؤدي الحقوق، ويترك الظلم ولو قدر عليه. أما الإحسان فهو إتقان

العمل وإخلاصه لله، ومراقبته سبحانه في العبادة والسلوك، والإحسان إلى الخلق بما يقدر عليه الإنسان من عدل ورحمة ونفع. وليس الإحسان بديلاً عن التقوى، كما أن التقوى لا ينبغي أن تُفهم على أنها مجرد اجتناب للمحرمات دون أداء الواجبات؛ بل هما متكاملتان، يجمعان سلامة الطريق وجودة السير فيه.

وقد ختم الله السورة بهذين الوصفين لأنها يجمعان ما تفرق في آياتها من معاني. فمن شكر النعم كان من أهل التقوى، ومن أخلص العبادة لله حقق أصل التوحيد، ومن دعا بالحكمة والموعظة الحسنة اقترب من الإحسان، ومن التزم العدل عند الخصومة كان متقياً، ومن صبر على الأذى واستعان بالله كان أقرب إلى الثبات، ومن تاب وأصلح سلك طريق الرجوع إلى ربه. وهكذا تنتهي السورة لا بمجرد أمر نظري، بل بميزان عملي يقاس به صدق الانتساب إلى منهج القرآن.

وتحمل هذه الخاتمة وعداً يثبت المؤمنين في أوقات الشدة؛ فمعية الله الخاصة لا تعني بالضرورة زوال كل ابتلاء عن المتقين، فقد يتلى الله أنبياءه وأوليائه، وإنما تعني أن العبد ليس متروكاً بلا هدى أو تأييد، وأن ما يواجهه من مشقة لا يخرج به عن رعاية الله وحكمته، وأن العقوبة النهائية إلى الله. وقد تتأخر بعض صور النصر التي ينتظرها الإنسان، لكن ذلك لا ينقض وعد الله؛ لأن الله أعلم بما يصلح عباده، وأعلم بمآلات الأعمال، وأحكم في قضائه.

ومن هنا، فإن قوله سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ ليس وعداً يقتصر أثره على الفرد في عبادته الخاصة، بل هو قاعدة في بناء الأمة أيضاً. فالأمة التي تريد نصر الله وتوفيقه تحتاج إلى تقوى تحفظها من الظلم والفساد، وإحسان يرفع جودة أعمالها، ويقيم العدل في مؤسساتها، ويصون حقوق أفرادها، ويجعل العلم والعمل وسيلتين للنفع والإصلاح. ولا يكفي أن ترفع الأمة شعارات التوحيد إذا خالفتها ممارساتها، ولا أن تتحدث عن الإحسان إذا ضيعت الأمانة أو ظلمت الضعفاء؛ فصدق المنهج يظهر في العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات معاً.

الوظيفة المقاصدية لخاتمة السورة

إن تأمل هذه الآيات يكشف أن الله سبحانه وتعالى ختم سورة النحل بإعادة بناء الموضوعات الكبرى التي دارت عليها السورة في صورة منهج متكامل للحياة. فقد بدأت السورة بتقرير أن أمر الله آتٍ، وأنه سبحانه منزّه عن الشرك، ثم عرضت دلائل قدرته في الخلق والرزق، وذكرت ما سخره لعباده من الأنعام والثمار والنحل وسائر النعم، وكشفت تناقض المشركين حين أقروا ببعض آثار النعمة ثم نسبوا إلى الله ما لا يليق بجلاله. وبعد ذلك انتقلت إلى مسؤولية الإنسان عن موقفه من النعمة، وإلى مشاهد البعث والجزاء، ثم إلى الأوامر الأخلاقية والتشريعية، وبيان حرمة الافتراء على الله، وفتح باب التوبة.

وفي الخاتمة، يجمع الله هذه المعاني في شخصية إبراهيم عليه السلام؛ فهو الموحد الحنيف، والقانت الشاكر، والقُدوة في الاستقامة على الحق. ثم يوجه نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم إلى اتباع ملته، ليؤكد أن التوحيد ليس فكرة مجردة، بل طريق حياة يقوم على إخلاص العبادة لله والشكر لنعمائه والاستجابة لوجيه. وبعد تثبيت هذا الأصل، يبين الله منهج الدعوة إلى سبيله، فيأمر بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، حتى يكون تبليغ الحق قائمًا على البصيرة والعدل، لا على الهوى والخصومة.

ثم يضبط الله سبحانه وتعالى علاقة المؤمن بالعدوان، فيقرر حق العدل ويحذر من تجاوز حدوده، ويرغب في الصبر حين يكون خيرًا وأصلح، ثم يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالثبات والاستعانة بالله، ويختتم بالمعية الخاصة لأهل التقوى والإحسان. وبذلك يتكامل في آخر السورة ما قد يبدو لأول وهلة موضوعات متباعدة: التوحيد، والنعمة، والشكر، والتشريع، والدعوة، والعدل، والصبر؛ إذ يجمعها كلها أصل واحد، هو إخلاص العبودية لله والاستقامة على هديه.

ومن أبرز الهدايات العملية التي تقررها هذه الخاتمة أن المسلم مطالب بأن يجعل التوحيد أساس رؤيته للحياة، فلا يستمد معاييرهِ النهائية من أهواء البشر، ولا يجعل العادات

الموروثة مقدمة على الوحي. وهو مطالب كذلك بأن يشكر النعم في قلبه ولسانه وعمله، وأن يدرك أن العلم والهداية من أعظم ما يمنحه الله لعباده. وعليه، إذا دعا إلى الحق، أن يجمع بين صحة المضمون وحسن الأسلوب، وأن يميز بين الحزم المشروع والغلظة، وبين الرفق والحكمة من جهة، والتنازل عن الحق من جهة أخرى.

كما تعلمه الآيات أن التعامل مع المخالفين لا يجوز أن ينفصل عن العدل، وأن المظلوم لا يملك أن يحول مظلوميته إلى ترخيص في الاعتداء. وله أن يطلب حقه بالطرق المشروعة، وله أن يعفو حين يكون العفو خيرًا وأصلح، لكنه لا يجوز له أن يتجاوز حدود الله في الخالين. وتعلمه أيضًا أن طريق الإصلاح طويل، وأن النتائج لا تخضع دائمًا لتقدير الإنسان، وأن واجبه هو صدق العمل والاستعانة بالله والثبات على الحق، لا التحكم في قلوب الناس أو استعجال الثمرات.

أما على مستوى الأمة، فإن الخاتمة تقدم منهجًا في بناء القوة الأخلاقية والحضارية؛ فالتوحيد يجر الإنسان من العبودية لغير الله، والتقوى تضبط استعمال القوة والمال والمعرفة، والإحسان يرفع مستوى الأداء والإنفاق، والحكمة تحسن توجيه الخطاب، والعدل يمنع تحول القوة إلى ظلم، والصبر يحفظ مسيرة الإصلاح من الانهيار أمام العقبات. وهذه المعاني ليست بدائل بعضها من بعض، بل هي أصول متكاملة لا يستقيم البناء الحضاري على وجه الصحيح إلا باجتماعها.

الخلاصة الجامعة لمقصد سورة النحل

إن المقصد الجامع لسورة النحل هو تقرير توحيد الله من خلال آيات قدرته ونعمائه، وإقامة مسؤولية الإنسان عن موقفه من هذه النعم والوحي، ثم توجيهه إلى الشكر والطاعة والاستقامة، حتى تتحول معرفة الحق إلى عبودية عملية تقوم على التقوى والإحسان.

وقد ساقَت السورة أدلتها الكونية والإنسانية، وكشفت صور الجحود والشرك، وذكرت سنن الله في المكذِبين، وربطت النعمة بالمسؤولية، ثم انتقلت إلى التشريع والأخلاق

والدعوة، حتى انتهت إلى النموذج الإبراهيمي الذي جمع التوحيد والشكر والقنوت، وإلى المنهج الذي ينبغي أن تسير عليه الأمة في تبليغ الحق والصبر عليه.

ولذلك فإن آخر آية في السورة ليست مجرد وعد حسن الوقع على النفوس، بل هي الميزان الذي تنتظم به موضوعاتها كلها: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾. فالتقوى تحفظ للإنسان استقامته، والإحسان يمنح عمله صدقه وكأله، ومعية الله الخاصة هي الرجاء الذي يستند إليه المؤمن في طريق العبادة والدعوة والإصلاح.

وهكذا تختم سورة النحل رحلتها من تقرير سلطان الله، إلى تعداد نعمه، إلى كشف مواقف الناس منها، إلى بيان مسؤوليتهم أمام الوحي، ثم إلى رسم الطريق العملي الذي يحقق الغاية من الهداية: أن يكون الإنسان عبدًا لله وحده، شاكراً لأنعمه، متبعاً لشرعه، داعياً إلى سبيله بالحكمة، عادلاً عند الخصومة، صابراً على الأذى، محسناً في عمله، راجياً معية ربه وفضله.

وهذا يكتمل تفسير سورة النحل في وحدتها المقاصدية الكبرى: من معرفة المنعم إلى شكره، ومن شكر النعمة إلى الاستقامة على الوحي، ومن الاستقامة إلى الدعوة والإصلاح، ومن الصبر على الطريق إلى الثبات على التقوى والإحسان.

والله سبحانه أعلم بمراده، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

والحمد رب العالمين.

هذا الكتاب

تفسير جامع لسورة النحل، يستلهم مناهج أئمة التفسير قديمًا وحديثًا؛ من الطبري وابن كثير والقرطبي وابن تيمية وابن عطية والشوكاني، إلى الألوسي وابن عاشور والسعدي والشعراوي وسيد قطب.

جمع وترتيب لأصالة التفسير بالمأثور، والتحرير العقدي، والاستنباط الفقهي، والتحليل اللغوي والبلاغي، والنظر المقاصدي، واستجلاء النظم القرآني ووحدانية السورة.

يمزج بين عمق التحقيق العلمي ووضوح البيان، وبين التأمل الإيماني والتوجيه التربوي والحركي، مع ربط الهدايات القرآنية بواقع الإنسان والأمة.

إنه تفسير يتجاوز شرح المفردات إلى كشف ترابط الآيات، وإبراز مقاصد السورة، واستنباط هداياتها في العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والحياة.

قراءة تعيد وصل الإنسان بربه، وتحول معرفة النعمة إلى شكر، والإيمان إلى عمل، وهداية القرآن إلى منهج للحياة والإصلاح والنهضة.